أندريه بلاتونوف

بحر الصِّبا

ترجمة: **خيري الضامن**



رواية

أندريه بلاتونوف

بحر الصِّبا

رواية

ترجمة: خيري الضامن



رواية «بحر الصِّبا»

"Ювенильное море"

(повесть)

تنشر بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية



الطبعة الأولى، 2016

عدد الصفحات: 144

القياس: 14.5 × 21.5

دار سؤال للنشر

لبنان - بيروت

الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس

ص.ب: 58-360-11

هاتف: 00961 1 740437

www.darsoual.com @darsouall2014

dar_souaal@outlook.com Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-25-4

لوحة الغلاف للفنانة الروسية زينايدا سيربريكوفا (1884-1967)

رواية «بحر الصِّبا» مكرّسة للسوفخوزات، أي الاستثمارات الزراعية الحكومية السوفيتية البائسة، لكنها ليست من طراز ما يسمّى بالروايات المهنية النقابية أو الإنتاجية. وقد يصح اعتبارها حكاية عن الزراعة السوفيتية في ذاك الزمان. والرأي السائد أن بلاتونوف كتبها في مطلع الثلاثينات. ولم تر النور إلا بعد نصف قرن، حيث نشرت في الغرب عام 1980، وفي الاتحاد السوفيتي عام 1986، في عهد المصارحة والتغيير (ميخائيل غورباتشوف).

من خلال بطلة الرواية، مديرة السوفخوز ناديجدا بوستالويفا، يصوّر بلاتونوف، بلغة تهكمية مريرة، بؤس الحياة السوفيتية وتنظيمها اللامعقول والمنافي للنزعة الإنسانية. بوستالويفا المليحة «تطعم بناء السوفخوز بجسدها»، كما قال أحد النقاد، وترشي المسؤولين السوفيت بالمغازلة، بل وحتى بالمضاجعة (والإجهاض الاصطناعي)، لتحصل على صندوق مسامير للاستثمارة التي تديرها. وقد أراد الكاتب لروايته ان تأتي متفائلة بجهود المهندس نيكولاي فيرمو وابتكاراته الرامية إلى الوصول إلى بحر الصِّبا ومياهه العذرية العذبة في أعمق أعماق الأرض، ولكن، ورغم النهاية السعيدة للرواية (فيرمو وبوستالويفا يستقلان الباخرة إلى أميركا للدراسة)، إلا أنها جاءت، كما هو شأن كل مؤلفات بلاتونوف، حزينة أليمة على العموم. ذلك لأن اهتمام الكاتب بالمعذبين وبضحايا الأحلام الطوباوية الاشتراكية كان يزداد مع تزايد الجهود المبذولة لتحقيق تلك الأحلام مع أنها كانت تبتعد أكثر فأكثر.

د. عبد اللّه حبه

ظلَّ الرجل يغذّ السير ليل نهار في طريقه، عبر الفيافي والقفار، إلى بقعة نائية في سهوب الجنوب الشرقي من الاتحاد السوفيتي. همه الوحيد، في هذه الأيام والليالي، أن يشغل باله بتفكير متواصل يُبعد الحسرة والكآبة عن قلبه. راح يتصور نفسه إنساناً شاطراً، ميّالاً إلى حسن التدبير، يحترف شتى المهن. فيؤدي وظيفة سائق قطار أو ملاح جوي أو منقب جيولوجي يدرس لأول مرة مجاهل الأرض وأسرارها.

وفي هذا السياق تسنّى لصاحبنا عابر السبيل أن يكتشف، على الماشي، السبب الأول للزلازل والبراكين والتبدل الدائم لتركيبة الكرة الأرضية. واتضح له أن ذاك السبب يكمن في الحركة الفلكية المتغيرة للأرض، كجرم سماوي، في الفضاء الكوني المحفوف بالمخاطر. فما إن تتخذ الأرض موقعاً متوازناً، ولو للحظة من الزمن، بين تنوع الجواذب السماوية، وما إن تنسق حركتها المتذبذة الحثيثة والمعقدة حتى تواجه ظروفاً مجهولة في الكون الفوار، فتتغير تلك الحركة وتسفر استمرارية اندفاعها المتضائل عن اهتزاز شديد في باطنها وعن

تحوُّل بطيء في كتلتها، ابتداءً من المركز وانتهاءً بسماحيق الغيوم في أغلب الظن.

اعتبر صاحبنا تأملاته هذه بدايات لمساهمة شخصية في علم نشأة الكون، فتنفس الصعداء وشعر بالارتياح.

في أصيل اليوم الخامس رأى الرجل، على صفحة الخلاء المتعب البعيد، بضعة منازل طينية كالحة في نجع خاوٍ لا يحميه شيء من عوادي الزمن.

أسرع الخطى وظل يمشي على عجل حتى حل الظلام، فلمح بصيص ضوء في أحد المنازل.

ثم تيقّن أن النجع عبارة عن عزبة مكوّنة من باحة فسيحة تحيط بها أربعة بيوت أو أحواش طينية ومستودع خشبي كبير مطمور في الأرض لحد النصف، وتتناهى منه أصوات ماشية من أصناف متنوعة. وجنب المستودع كلب مربوط يتراكض في سلسلته وقد اشتدّ به الغضب.

من الباحة يفوح دفء الماشية التي لا تعرف الهدوء والاستقرار، والسهب الضبابي ينبسط حول المكان وادعاً بعد أن دفأته شمس النهار. فشعر القادم بطيبة هذه الأنحاء وكاد يستولي عليه النعاس.

اقترب من بصيص النور في نافذة المنزل ورأى، جنب القنديل، رجلاً في سنّ متقدمة وقد غرز نظاراته في مجلد عتيق بغلاف معدني صدئ. كان يهمس على مهل بشفتين ذاويتين

متحشفتين ويتنهّد متأوّهاً وهو يقلّب صفحات الكتاب، وربما كانت تثقل عليه انطباعات مما تخلفه القراءة في النفوس.

دخل القادم الغرفة الواطئة وحيّا القارئ الكهل، فردّ عليه صاحب البيت التحية وبادره على مهل:

- جئت لتتدخل في شؤوننا؟

- كلا - أجاب القادم، واستفسر عن طبيعة المكان الذي وصل إليه.

- هذا هو سوفخوز[1] اللحوم والألبان رقم 101 - أجاب الكهل، وحوّل بصره إلى صفحة الكتاب، فقرأ عليها بصوت مسموع كلمة قديمة، ثم أضاف:- وما شأنك أنت؟ أرجوك، يا أخي، لا تتدخل في ما لا يعنيك.

- وهل يمكنني أن أرى المدير؟ - سأل القادم.

- طبعاً - أجاب الكهل على مضض - انظر إليّ وستراه. أنا المدير. هل تظن أن المدراء في هذه الأنحاء من معدن آخر؟ أنا المدير.

أخرج القادم ورقة سلّمها إليه، وفيها أن الجهات المسؤولة نسّبت إلى السوفخوز رقم 101 الرفيق نيكولاي فيرمو المهندس

---

(1) «السوفخوز» و«الكولخوز» من المصطلحات السوفيتية المندثرة في اللغة الروسية. الأول يعني المزرعة الحكومية، فيما يعني الثاني المزرعة التعاونية. ولعلهما يمثلان بدايات مفهومي القطاع العام والقطاع الخاص في الاقتصاد الزراعي - المترجم.

الكهربائي المختص بالتيار العالي. وهو، إلى ذلك، خريج المدرسة الموسيقية باختصاص في آلات الطرب الشعبية. وكان قبل هذا وذاك قد عمل بضع سنوات، على سبيل التجريب، بصفة براد ومصلح ساعات وسائق سيارة وما إلى ذلك، وتذوق شتى المهن، ما يدل على وجود طاقات لا تنضب في بدن هذا الرجل المندفع الآن لمواجهة الواقع تحديداً، بعد أن اختزن موهبة طبيعية ثرّة ومعارف تكنيكية متنوعة. ذلك هو، على وجه التقريب، مضمون الكتاب الرسمي الذي حمله المهندس فيرمو إلى السوفخوز.

قرأه المدير وتفتحت أساريره فجأة، فراح يخوض مع الضيف في مواضيع تاريخية وفلسفية وأدبية. ذلك أنه يحب كل المواضيع، ما عدا الرعي وتربية الماشية. فينساق بارتياح وراء أية فكرة بعيدة بشرط أن تكون سابقة لأوانها بمئة عام أو غارقة في بطون التاريخ لمثل هذه المسافة.

وشعر المدير ببعض الاحترام لهذا المستخدم المهذب الذي ينصت صامتاً ولا يفرض آراءه.

كفَّت الماشية عن الثغاء والخوار من زمان، وغفت في محاجرها الرعوية حتى الفجر. وفي المنزل الطيني ضاقت أنفاس الرجلين من القنديل والكلمات، واستولى عليهما الضجر، فغفا نيكولاي فيرمو على مقعده قبالة المدير. ولاذ الكلب بالصمت هو الآخر بعد أن يئس من رد فعل السهوب على نباحه. ولعله اقتنع أخيراً بغياب العدو، فولج القرعة

المجففة الخاوية التي تعوضه عن بيته ليأخذ قسطاً من النوم. كان السوفخوز قد استنبت هذه القرعة الضخمة في العام الفائت لتُعرَض في معرض الناحية دليلاً على ثمرة المثابرة في الأعمال الزراعية. وبالفعل فازت القرعة بجائزة. وفيما بعد انتزعوا أحشاءها وجعلوها بيتاً للكلب، ذلك لأن طباخات السوفخوز رفضن تقطيعها واستخدامها في الطعام لضخامتها الفائقة.

- ألم ترَ قرعتنا؟ - سأل المدير، لكنّ فيرمو قد غطّ في النوم - حبذا لو ألقيت نظرة عليها، فهي ضخمة للغاية. مساحة باطنها الصالح للسكن أكثر من متر مربع. عندنا في القطيع الأبعد مئة قرعة مفرغة مثل هذه، تنام في داخلها الحالبات والرعاة. بتلك الطريقة تمكنتُ من حل أزمة السكن... آ، أنت نائم؟ نم، يا مسكين، أما أنا فسأطالع قليلاً...

وانكبّ المدير من جديد على كتابه المعدني العتيق الذي يحكي قصة ولاية القيصر إيفان الرهيب. راح يقرأ وقد غرز بعض أصابع يده اليمنى في رأسه المشحون بالتأملات والأحزان.

بعد نصف ساعة استيقظ القادم الجديد بسبب وضعية النوم غير المريحة. وحدّق في وجه المدير متسائلاً:

- ما رأيك؟ ربما أستطيع أن أرسم لك صورة صوتية، فقد درست الموسيقى.

- لا مانع - وافق المدير مزهواً - اسمي أندريان

أومريشيف. وينبغي أن يدوّي هذا الاسم قوياً في موسيقاك. فأنا أطمح إلى دخول قائمة التاريخ الأبدية بين الأسماء الراسخة في الأذهان كشخصية أخلاقية مثقفة عاقلة من شخصيات المرحلة الانتقالية. ولذا عليك أن ترسم صورتي بلمسات ثخينة وبصوت جهوري قدر المستطاع. أنا أحب الأوركسترا... أم أنك تظن - وهنا تبدلت نبرة صوت أومريشيف - أني أفضّل التسكع هنا بين الماشية؟

- أولستَ كذلك؟! - دهش فيرمو.

- كل ا- تنهّد أومريشيف - أرسلوني إلى هذه البرية لأن «قضيتي غامضة»، وحالما تتضح لن أبقى هنا دقيقة واحدة. هل تستطيع أن تجسّد كآبة الغموض في دوي هدّار؟

- سأحاول - وعده فيرمو وهو يتحسس لاجدوى الحياة التي باتت كالهذيان من فرط التعب وبسبب ما أدلى وسيدلي به هذا الرجل.

طفق أومريشيف يحكي عن خدمته الطويلة في مختلف فروع اتحاد الجمعيات الاستهلاكية في أطراف الاتحاد السوفيتي، وعودته إلى المركز فيما بعد. إلا أن المركز، بعد كل تلك السنين، نسي دوره ومؤهلاته وأفضاله حتى بات غريباً عليه وتحوَّل إلى شخص «غامض»، بل وربما ينطوي على بعض المخاطر. زد على ذلك أن الأوضاع الجديدة التي نشأت في غيابه أدت إلى تغيُّر توزيع القوى في النظام واختلال التناسب بين الناس، فوجد أومريشيف نفسه، في مجرى المستجدات،

يتيماً من كلا الأبوين. لقد رأى، بعد عودته، عالماً غريباً من القطاعات والفروع الإدارية والسكرتاريات والمسؤولين التنفيذيين والرئاسات الأحادية أو الفردية والعمل بالقطعة وما إلى ذلك، بينما كان قد رأى قبل الرحيل عالماً من الأقسام والشعب والتسيير الجماعي الواسع والاجتماعات والتخطيط لفترات مستقبلية لا علم لأحد بها، لثلاثين سنة قادمة، عالماً من أروقة المكاتب والدوائر المكتظة التي تجري فيها دراسة معمقة شاملة لمسائل يتطلب حلها دهراً، عالماً قديماً منسياً الآن بالمطلق باتت الانتهازية تعشش وتزدهر فيه. تنهّد أومريشيف يائساً ومضى يراجع القطاعات المتشعّبة في دائرته. استمعوا إليه وتفرّسوا في وجهه وقرأوا، متمتمين هامسين، صحيفة أعماله ودفتر خدمته، ثم قالوا له، في مسحة من التوتر المهموم: «مع ذلك ليست القضية واضحة تماماً بالنسبة لنا، ولا بدّ من استيضاح إضافي، وعندذاك فقط يمكننا أن نبتَّ في مسألتك ونتخذ قراراً معيّناً لهذه الدرجة أو تلك». وأجابهم أومريشيف بأنه موظف لا غبار على مسؤولياته، وأن كل الوثائق التي يقدمها مصدّقة لا تثير الشكوك. فكانت الدائرة تجيبه: «مع ذلك قضيتك ليست واضحة تماماً بالنسبة لنا، وسنحاول التأكد منها على أية حال». بهذه الصورة غدا أومريشيف بمثابة المسرّح من الجهاز الإداري السوفيتي، وأفردت له خانة في القائمة الخاصة بأصحاب القضايا المعلقة والمصائر الغامضة. وفي الدائرة التي ينتسب إليها تجمّعت أربعمئة قضية غامضة

أحيل أصحابها إلى الاحتياط وطلب منهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد دوماً وخصصت لهم رواتب مجزية على أية حال. كانوا يترددون على الدائرة مرتين أو ثلاثاً في الشهر، يقبضون الراتب ويتساءلون: «ألم تتضح قضيتي بعد؟» - «كلا، - يجيب ذوو القضايا الواضحة - لم نحصل حتى الآن على معلومات كافية عنكم تمكننا من تعيينكم في منصب ما. سنحاول استيضاح القضية». وكان الغامضون يستمعون بيأس إلى هذا الجواب وينصرفون. فيترددون على حانات الجعة وينشدون الأغاني ويعربدون هناك بحثاً عن متنفس لطاقاتهم الطليقة التي ارتاحت من العطالة بما فيه الكفاية. وفيما بعد يلتقون من شتى مدن الجمهورية، بل وحتى من دوائر الخدمة في الخارج، فيتزاورون ويتلون الأشعار ويهتفون بالشعارات ويترنّمون بالمقامات والرباعيات والمواويل المحبوبة.

تذكّر أومريشيف الآن عهد الغموض الذي ولّى دون رجعة، فأنشد بأعلى صوته رباعية مزّقت سكون الليل:

ما أسرعَ الأيام
تجري ولا تعودُ
في دوامة الحياة
اليومَ عيدٌ وغداً وفاة.

كان أصحاب المصائر الغامضة ينشدون آنذاك تلك الرباعية بجوقة كبيرة في وضح النهار يدارون كآبة العطالة ويكفكفون

دموعهم. وكان إعجابهم بهذه الرباعية شديداً يدفعهم إلى إنشادها بأصوات مدوية تمزّق رتابة دوام الموظفين. وبعد التجمع يتفرقون كل لحاله. بعضهم يمضي إلى غرفته، وبعضهم إلى غرفة من يتصدق عليهم بالإقامة الوقتية، والأغلبية الساحقة منهم تتوجّه إلى دوائر المصلحة التي ينتمون إليها، ويبيتون الليل في تلك الدوائر ويلتقون مع عشيقاتهم، حتى أن أحدهم أُغرم بإحدى الموظفات لدرجة جعلته يرميها بمحبرة اللجنة النقابية ويصيبها بجراح لشدة غيرته عليها. زد على ذلك أنهم كانوا يستخدمون الهواتف الرسمية في مكالماتهم الشخصية ويلعبون الداما مع الحراس الليليين ويقرأون موجودات الأرشيفات قتلاً للكآبة والملل ويحررون الرسائل إلى أقربائهم على استمارات دوائر الدولة. وأثناء النوم يسقط بعضهم من فوق المكاتب لأنهم يرون أحلاماً مزعجة في المنام. وفي الصباح يرتدون ثيابهم على عجل قبل مجيء الموظفين إلى دوائرهم، ويكنسون الأوساخ ويذهبون إلى البوفيه، فيكونون أول من يتناول السندويش فيها. وعندما يلمّ بهم الفقر يتوجهون إلى قلم الملاك الذي كانوا في عداد موظفيه أيام زمان ويتساءلون بأصوات متخاذلة، خائفين في سرّهم من انتهاء مدة الغموض واحتمال التعيين: «ماذا؟ هل من نتيجة؟» - «كلا» - يجيب قلم الملاك - «في ملفك إشارة إلى إجازة مرضية لمدة شهر، ولا بدّ أن نتأكد هل حدث لك ما هو أخطر من المرض». وينصرف الرجل. ولكي يقضي وقت الدوام حتى تفرغ دائرة مبيته من

موظفيها بسرعة تراه يدخل جميع المراحيض ولا يستعجل في مغادرتها. ثم، عندما يخرج منها، يقرأ كل ما يصادفه من جرائد الحائط ويصوغ رأياً شخصياً في المسائل التي تتناولها تلك الجرائد، وأحياناً يتقدم بمقالة من عنده حول خلل ما، يلاحظه ويعتبره ظاهرة يجب أن لا تتكرر.

كان بعض «الغامضين» قد أمضوا في حالة الغموض هذه عاماً كاملاً، والمسؤولون يبشّرونهم بقرب التحاقهم بالعمل، فلم يبقَ سوى إيضاح مسألة طفيفة هي لماذا لم يبلّغوا في حينه بما يشير إلى احتمال تخلّفهم عن الركب عندما كانوا في مناصبهم؟ أو لمَ لا توجد إشارة إلى سبب عدم تعرّضهم لعقوبات من الجهات المسؤولة المحلية، فبقيت دفاتر خدمتهم نظيفة تماماً. أفلا ينطوي ذلك على جوانب خفية ذات صلة بالمحسوبية؟ وعندذاك يبدأ الواحد منهم يفكر جدياً، بل ويدرك باكتئاب أنه إنسان غامض ومشوش فعلاً، وأنه بالتالي هالك لا محالة. ففيه يكمن شيء خفي ضار، واضح للعيان موضوعياً، لكنه غير معروف بالنسبة له شخصياً. فيمضي متكدراً إلى قسم المحاسبة ويؤكد بالحجة والبرهان أنه لم ينتفع من العطل الرسمية والآحاد طوال شهرين، فيتسلَّم تعويضاً عنها، ثم يذهب إلى أصدقائه ورفاقه ليشرب الجعة وينشد المواويل والرباعيات في وضح النهار. وقد أُعجب أحد الغامضين بتلك الحرية وهذا التسيّب حتى أنه رفض قطعاً المنصب الذي عيّنوه فيه عندما عينوه فعلاً. وأعلن بصوت خفيض عن مرض خفي

تماماً لا يشعر به أحد حتى هو نفسه، لكن المرض موجود فيه دون ريب. وأجابوه أن إخفاء المرض جريمة مثل التمارض، والمتمارض يحال إلى المحاكمة. ويقال إن ذلك الرجل أصيب بنوبة طفيفة من الجنون فيما بعد.

أما أومريشيف نفسه فلولا الصدفة لما تخلّص من حالة الغموض. ذات مرة غادر الدائرة بعد نهار من التسكع الممل في أروقتها، فوقع بصره على رجل يشير، بتلويحة من يده، إلى سيارة تنتظر هناك. اقتربت السيارة وركبها الرجل، فبادره أومريشيف قائلاً: «خذني في طريقك» - «لماذا؟» - سأل الرجل مستغرباً. «لأنني عضو في النقابة، وأنت عضو فيها، فنحن رفيقان!». فكّر الرجل هنيهة وقال: «اصعد». وفي الطريق فكّر أكثر وكأنما تذكّر شيئاً بسيطاً يثير الانتباه كدخان الفرن المتصاعد فوق الكولخوز ليدفئه في الشتاء.

قرر الرجل الغريب أن يستضيف أومريشيف، فأخذه إلى بيته. هيّأت زوجة الموظف الكبير، وهي عضو في منظمة الكومسمول الشبابية، طعام الغداء لزوجها وضيفه، ثم سقتهما شاياً. وبعد الطعام استمع الزوج، ببطن منتفخ ورأس ناعس، إلى مشكلة أومريشيف، فيما انهالت الزوجة الشابة، كعادتها، بوابل من اللوم على زوجها، مشددة أنه من أسوأ أنواع الانتهازيين الذين يتغاضون عن الجشع والفساد بتأثير عدوى الليبرالية العفنة، وأنها إذا استمر الحال على هذا المنوال، لن تتمكن من العيش معه تحت سقف واحد. طأطأ الرجل رأسه

لخجله الشديد. ففي أقوال زوجته كثير من الحقيقة. وفي الصباح التالي سلّم أومريشيف كتاب تعيينه في سوفخوز اللحوم والألبان حتى تتضح قضيته ويدلل على هويته من خلال الممارسة. وفي ذلك اليوم حل زوج عضوة الكومسمول عقدة الغامضين بكاملها وأحال إلى المحاكمة عشرة من موظفي دائرته الذين يتعكزون عليها، فوفّر لهم فرصة الاستراحة من أشغالهم! وفي المساء أبلغ الزوج زوجته بتلك الإجراءات وحصل منها على القبلة الحارة التي يفضّلها على غيرها.

ازدادت كآبة فيرمو مع تمادي أومريشيف في استعراض مجرى حياته. وكان ضجر الشيخوخة والارتياب ينبعث من فم العجوز لتثاقل أنفاسه المتعبة. فغدت عينا فيرمو الصافيتان زجاجيتين خاويتين كأنما لا وجود لهما، بعد أن كانتا قد اسودّتا من فرط السعادة وبهتتا من أثر الأحزان. فهو ساهم في تأجيج حماسة الحياة البروليتارية وكدّس، مع الأصدقاء ومن خلال الإبداع والبناء، طاقة ومادة صالحة لتحقيق المثال الأعلى التاريخي في مستقبل بعيد لاحت تباشيره آنذاك. وكان، شأن الملايين من أمثاله، يحنو على حدس اكتناه المستقبل الشامل الذي يملأ فؤاده بقوة غامرة تجعله يتحسس حتى الجماد ويتلمس حتى السبب الأول للزلازل والبراكين... لكنه الآن جالس أمام عجوز لم يخلّف في نفسه أثراً يُذكر، وكأنما عاش قبل التاريخ. ولعل أومريشيف يطالع بهذا القدر من الشغف والاهتمام كتاب إيفان الرهيب لأنه يعي تماماً لاجدوى حياته،

ما دام كل الأعداء الآن واعين مثله، ويقدر كثيراً، وإنْ بصورة تاريخية صرف، منافع الاحتلال التتري المغولي للأراضي الروسية، ولا يريد، عن دراية وتبصر وحكمةٍ، أن يتدخل في مجرى التاريخ الحديدي الذي لا بدّ وأن يقطع عنقه لو تدخَّل فيه.

مضى الليل وفقد مغزاه. ووراء نافذة المنزل الطيني توشحت السماء بشحوب الفجر وبدأ النهار متكاسلاً، والأرض الندية المنهكة تنبسط في كل مكان دون أن يبدر منها ما يلفت النظر، سوى بعض الكائنات الحية المختلفة الطباع تتململ وتتصائح هنا وهناك.

كان فيرمو جالساً بلا حراك يتطلع من خلال النافذة إلى شحوب العالم المبكر وينصت إلى بدء غليان الحياة. لكنّ ذلك لم يكن ترنيمة المستقبل التي دأب على التفكير فيها دون جدوى، بل هو الصخب الأزلي المعتاد، المفعم بالسعادة في آناء الفجر واللاأبالي الخالي من الفرحة فيما بعد.

تلاشى اهتمام أومريشيف بضيفه، فشرع من جديد يقرأ على مهل ما كتبه القدامى، ويبتسم أحياناً لنكتة عفا عليها الزمن، أو يكفكف دموع الحزن والمؤاساة أحياناً أخرى، لاسيما وأنه بلغ في القراءة موضع وصف الواقعة المحزنة التي حدثت في عهد إيفان الرهيب عندما تساقط من السماء مطر حجري ووابل من سجّيل، ألحق ضرراً كبيرا بالناس في ذلك العهد التاريخي الغابر.

- كان أولئك بشراً من معدن آخر، وكانت هناك أحداث مشهودة. - قال أومريشيف مطمْئناً نفسه بما يرويه الكتاب، وراح يقرأ بصوت مسموع: - «أراد القيصر إيفان ذات مرة أن يقيم، في أعياد الميلاد، مأدبة طريفة في المنطقة المحيطة بالكرملين. وكان في مزاج طيب. فأمر الوجيه شيكوتوف أن يجمع من كل الأنحاء سبعين من الطهاة المختصين بإعداد الحساء الساخن وخمسة وأربعين من المختصين بتقديم الأطباق الناشفة وثلاثين من المختصين بطبخ العصيدة وأربعة عشر من طهاة المقليات وطباخاً واحداً أو اثنين في كل نوع من باقي أنواع المأكولات. إلا أن التجار والصناع دفعوا فدية مقابل إعفائهم من هذه «المبرة» كيلا يتورطوا في تذوُّق وتجريب ما لم يتعودوا عليه. ثم تعاهدوا على أن يتناولوا مدى العمر حساء الكرنب المنزلي أو شراب الخبز المنقع مع البصل». توقف أومريشيف عن القراءة عند هذا الحد، وعلّق على ما قرأه باسماً:

- لاحظ المفارقة، في مركز ناحيتنا وحده يستخدمون الآن طباخين أكثر مما في وليمة إيفان الرهيب تلك. فما أجمل تواضع القدماء، كانوا يكتفون بحساء الكرنب الزهيد!

شعر نيكولاي فيرمو من زمان بالملل من هذا الإنسان «الغامض»، فنهض لينصرف، لاسيما وأن الفجر الجديد بزغ في الخارج، فيما ظل القنديل ينير في الداخل.

- أنا ذاهب، إلى اللقاء! - قال فيرمو بحياء.

- اذهب، ولا تتدخل في ما لا يعنيك. - أجابه المدير

وأضاف: - القدماء عاشوا حياة طويلة لأنهم لم يكونوا يتدخلون في ما لا يعنيهم. اذهب. عليَّ أنا أيضاً أن أذهب قريباً لأقطع دابر بعض الذين يتدخلون في شؤون الغير.

وما إن خرج المهندس فيرمو حتى أخذ أومريشيف كتاباً آخر من الجرار بعنوان «تجارة القنب في القرن السابع عشر» وبدأ يتصفّحه. كان أومريشيف مهتماً بالقنب والصُوف والدخن، ومعيشة القبائل في إقليم مورشان، والجذوع السوداء الغارقة في أعماق الأنهار، ومشاعر فتيات أيام زمان قبل الزفاف. ذلك كله يشغل باله ويحيّره. فكان يريد أن يكتنه خفايا العصور الخوالي وأسرارها، ويُقنع نفسه طول الوقت بأن الهموم والآلام الأزلية لا تأتي إلا لأن الناس يتصرفون كالأطفال ويتدخلون في ما لا يعنيهم، فيعكّرون الهدوء والاستقرار.

* * *

خرج فيرمو إلى الخلاء المغمور بأشعة الشمس، واجتاز باحة المبنى الإداري على مهل قاصداً المراعي الأبعد. الحالبات الحافيات يحملن دلاء اللبن ويطأن الأرض بأقدام متينة. وعلى عتبة عنبر المبيت جلس راع كهل يأكل من قصعة وضعها على ركبتيه، وراح يتطلع إلى الحالبات والى الرجل الغريب والمراعي البعيدة التي يتعيَّن عليه أن يقضي فيها النهار كله ويفكر كثيرا، ففي الأراضي البكر ليس لدى الراعي عمل كثير، ولذا يشغل نفسه بمختلف الأفكار التي تخطر في باله.

خرجتْ مع فيرمو من السوفخوز امرأة شابة سارت جنبه بمحض الصدفة. كان فيها شيء من الجاذبية، لكنها بدت ساذجة مطمئنة. أخذت تتطلع إلى الرجل من الناحية الموضوعية، وكأنه حاجة ما، دون أن تشعر بنفور منه أو ميل إليه. أما هو فقد شعر بالخجل منها، كونه بقلب ينبض دوماً تحت ثقل الحب المتراكم، ولعله لم يجرّب المرأة بعد، ويخشى أن ينتهي إلى وجهة غير معروفة تجرّه إليها عواطفه الجياشة، بينما يريد، على أية حال، أن يحتفظ بنفسه لمصير أفضل. إلا أن نيكولاي فيرمو يستطيع في سرّه أن يحب دفعة واحدة، مستجيباً لدعوة القلب المتضايق. كان بدنه التوّاق مفعماً بحياة لا تجد متنفساً لها. ألقى نظرة أخيرة على المرأة. وهي مليحة بالفعل تشعّ طيبة وصفاءً. شعر فاحم مما ينضج في السهوب القائظة يكسو رأسها ويكحل عينيها اللتين تومضان بألق واثق ينمّ عن شعورها بقيمتها الشخصية. ومن فمها المنفرج (بفعل الفضول والاهتمام بالرجل الغريب) بانت أسنان متينة مسودة لانعدام مسحوق التنظيف، وصدرها يعلو وينخفض متنفساً برحابة وأناة في تهيؤ طبيعي لرضاعة الأطفال والحنو عليهم حتى يترعرعوا في حب غامر. تصاعدت رجولة فيرمو من شدة الانفعال، وتبدَّد حياؤه فقال بصوت أبحّ غريب عليه:

- ما أشدّ الملل في الدنيا!

- وما سبب مللك؟ - تفوهت المرأة.- نحن أيضاً لا نعيش في مرح وحبور، لكننا نسينا الملل من زمان. . .

توقف المهندس. وتوقفت رفيقة الطريق هي الأخرى. فراح يتطلع فيها من جديد دون أن يتحرك، واحتواها بنظرته هذه المرة بكاملها، فإن بدن الإنسان وعاء لجوهره. عينا المرأة صافيتان، وفيهما الآن كثير من الحذر. ووراء بدنها ينبسط الخلاء، ويمتد العالم المشع الخالي الذي انتقلت كل خواصه في هذه اللحظات إلى هذا الكائن الصغير بشعره الفاحم. وقفت المرأة أمام الرجل صامتة، إما لأنها لم تفهم شيئاً، وإما بدافع من المكر والدهاء.

- الملل يأتي من عدم تطمين رغباتنا - تمتم فيرمو في الفضاء المشمس الهائل الملفع بدخان مواقد الرعاة. - أتطلع إلى وجه من الوجوه، وإن كان غريباً، وأفكر: أريد أن أقبله، لكنه يشيح عني ويقول: لم ينته الصراع الطبقي بعد. وجود أثرياء الريف يحول دون تلامس الشفاه.

- أعتقد أنه لن يشيح عنك - قالت المرأة.

- تقصدين وجهك؟ - سألها فيرمو فأجابت:

- لنفترض نعم. وجهي أنا.

عانقها فيرمو طويلاً، وهو يتحسس دفء الجسد الكادح وينصت إلى وشوشته الخافتة، ويقنع نفسه بأن عالم تصوراته الشخصية لا يختلف عن عالم الواقع وأن المصائب في الحياة طفيفة لا يؤبه بها. تفرَّس في محيّا المرأة بإدراك كامل لكل الأمور، فيما أغمضت هي عينيها لتُمكّنه أن يطبع قبلة على

شفتيها. ومن جديد اقتنع بحقيقة واقعه، فراح يضغط المرأة برفق إلى صدره، وهمّ بالابتعاد عنها قليلاً ليحتفظ بالسعادة التي كسبها تواً. لكن المرأة احتضنته هذه المرة وقبّلته بنفسها.

- بدأتَ تتدخّل، أليس كذلك؟ - جاءه من بعيد الصوت الذي نسيه منذ الصباح، تشوبه مرارة الأسف.

فعندما كان الاثنان يتطلعان في وجه بعضهما البعض اقترب منهما حصان على صهوته شخص ثالث هو أومريشيف. قهقه هذا الأخير للقبلات التي شاهدها، فهي ظاهرة قد تكون خارقة للعادة في السهوب.

- أعجبتني كثيراً - أجابه فيرمو وشعر بالضجر والملل من جديد لرؤية أومريشيف.

- لا تتدخل حتى وإن أعجبتك. - نصحه أومريشيف - ابتعد وإن كنت معجباً، وإلا فلن تحافظ على ما أنت فيه. حكّم عقلك...

- اذهب إلى المراعي يا أومريشيف. - قالت المرأة - انتحرت إحدى الحالبات هناك. وأنا سآتي لأتحاسب معك.

- طيب، تعالي. - وافق أومريشيف بطيبة خاطر. - لكنني لا أريد أن أزجّ بنفسي في مستشفى المجاذيب النسائي.

- سأزجّك فيه أنا، ولن تخرج منه - قالت المرأة متوعدة.

- لن تتمكني، يا هذه! - أجابها أومريشيف وأضاف: - خمس سنوات في الحزب بلا توبيخ، لأني لم أتدخل في شؤون الغير وفي تفكيرات الآخرين. وسأبقى عشرين سنة أخرى.

سأعيش نقياً حتى قيام الشيوعية. فلا تنفعلي يا ناديجدا بوستالويفا.

انصرف أومريشيف، وظلت ناديجدا بوستالويفا واقفة تفكر ليس في رفيقها الجديد، بل في الحالبة الميتة. لكنّ نظرة عينيها بقيت كما كانت عليه في لحظات المودة التي ربطتها مع المهندس فيرمو.

في الطريق إلى مراعي السوفخوز عرف المهندس أن رفيقته تعمل سكرتيرة للخلية الحزبية في المراعي، وأنها تلاقي هنا صعوبات كبيرة، مؤلمة أحياناً، بل وفظيعة، لكنها لا تستطيع أن تعيش حياة يسيرة غير هذه في بلادنا، بلاد السعادة العسيرة.

تلك هي المرة الأولى التي تأتي فيها بوستالويفا إلى مراعي «أحواش الوالدين». فقد عملت قبل ذلك في مراع أخرى. لكن الأمور تعقّدت هنا والصعوبات تزايدت، وانهارت معنويات سكرتير المراعي، فأوفدت اللجنة الحزبية ناديجدا بوستالويفا إليها لتقهر العدو الطبقي وتقوده إلى حفرة القبر.

* * *

تقع مراعي «أحواش الوالدين» في مجرى نهر قديم نضبت مياهه قبل ألف عام. وهناك كوخان من الطوب يتخذهما الرعاة مأوى لهم في فصل الشتاء، فيما استقرت القرعات المجوفة الضخمة في أطراف السهب ليحتموا بها عندما تسوء الأحوال الجوية صيفاً.

من طبيعة التضاريس يدرك الرائي، على امتداد بصره، أن قاعدة المراعي ذات موقع ملائم اختير بقدر من الحكمة. فالأرض تنبسط مستوية برفق لمسافة عشرات الكيلومترات على مدى البصر وكأنها غفت إلى الأبد، لا أحد يحميها من برد الشتاء ومن الرياح التي تصول وتجول كما يحلو لها. وفي موضع واحد فقط تهبط تلك السهول منخسفة، وتخفّ فيها وطأة الزوابع والرياح. وهذا الموضع هو الأثر الذي خلّفه مجرى النهر القديم المسكين الذي صمت خريره إلى الأبد وبعثرته ريح السموم وقبرته الترسبات حتى آخر نبع واهن من منابعه. إلا أن آثاراً أخرى من النهر لا تزال باقية في المراعي بشكل رواسب رملية اقتضت الحاجة احتواءها بالتشجير. فغرست في الرمل فسائل أحراج الغار والصفصاف المتهدل. وبين تلك الأحراج، على بساط حشائش الخنشار، تستقر القرعات الضخمة الخاوية التي يتخذها الرعاة مأوى للمبيت.

وسط المراعي بئر ملبسة بجذوع الأشجار، وامرأتان أجيرتان تغترفان الماء من الأعماق بجهد جهيد وتحملانه إلى صهريج يستقي منه البشر والبقر.

في سجل مراعي «أحواش الوالدين» أربعة آلاف رأس من الأبقار، بالإضافة إلى الثيران والخيول والبغال ومختلف الحيوانات الأصغر الصالحة للتسمين والإنسال كالأغنام والأرانب والدجاج وسواها. المراعي بحد ذاتها عبارة عن

سوفخوز كبير يمثل مصدراً مكفولاً لتزويد البروليتاريا باللحوم والألبان.

عندما وصل فيرمو وبوستالويفا إلى المراعي كان أومريشيف قد سبقهما إليها، فوجداه يجوبها كالسيد الحريص يتفقد كل ما يصادفه هناك. وكان يرافقه شخصان هما الخبير الفني فيسوكوفسكي، ملاحظ المراعي، وأفاناسي بوجيف، الإداري الأقدم. قال لهما أومريشيف على الماشي:

- واجبكما أن تتصرفا وكأنكما ذرّتان من كياني ومكوناتي، ولا تتدخلا في شيء بدون توجيه مني.

- مفهوم، يا حضرة المدير، فالموقف مضطرب غامض - ردّ عليه بوجيف باستجابة تامة، بل وبسرور. وانطبعت ابتسامة على وجهه البريء الصافي الذي تزينه عينان طيبتان وادعتان، فاتحتان بلون السهوب.

أما فيسوكوفسكي فقد لاذ بالصمت. إنه يحب الماشية لذاتها، وكان من زمان ينوي الانصراف للعمل في تربية مواشي الإنسال ليسهر على توفير مستلزمات المواليد لغرض التكاثر وليس من أجل التسمين والذبح. كان نحيف البدن نحيلاً، ربما لأنه يقتات، أكثر ما يقتات، على اللبن والعصيدة وأسماك البرك، ونادراً ما يأكل لحم البقر. وهو، إلى ذلك، متضلّع في اختصاصه العلمي بدقة تبلغ حد الكآبة، فيرى في كل دابة ليس وزنها ومردودها فحسب، بل ويهتم بمزاجها وميولها في الوقت ذاته. ولذا حظي بإعجاب المسؤولين في مديرية تربية المواشي

وصار يتقاضى راتباً مجزياً ينفقه على مداراة الدواب التي يحبها، ذلك لأنه بلا عائلة ولا أقرباء. كان، على سبيل المثال، يشتري قماشاً صوفياً يخيط منه بنفسه جوارب للأرانب في الشتاء، ويطعم الثيران فطائر مملّحة لذيذة، وقد شيّد دفيئة زجاجية، مزوّدة بفرن، تنمو فيها شتاءً أعشاب العلف التي تقتات عليها العجول الناشئة بعد أن تمل من اللبن. كما أقدم فيسوكوفسكي على أمور كثيرة أخرى بدافع من حبه لعمله وماشيته.

في تلك الأثناء كان أومريشيف يدلي بملاحظاته فيما يخص شؤون المراعي. دخل المخبز وتذوّق الرغيف، وقال لأقرب معاونيه: «اخبزوا رغيفاً ألذ». فوافقه الجميع. وعندما خرج من المخبز فكر قليلاً وخاطب فيسوكوفسكي وبوجيف قائلاً: «يجب عليكما أن تحللا كل أشكال العمل والنواقص بجد». وسجّل بوجيف هذه الكلمات في مفكرته رأساً. وعندما رأى أومريشيف شخصاً يسير في سبيله بهدوء قال: «يجب تقوية الانضباط». وتلكأت خطواته لسبب ما في أحد المواضع فأشار إلى الأرض موضحاً: «يجب اقتلاع الحشائش من الممشى، فهي تلسع القدمين وتمنع المرء من تركيز الانتباه».

همّ بوجيف بالانحناء ليقتلع الحشائش رأساً، إلا أن أومريشيف أوقفه: «لا تباشر رأساً. في البداية سجّل القضية، ثم ادرسها. فأنا أتناولها من حيث المبدأ، ولا أقصد هذه الحشائش وحدها، أنا أقصد كل الحشائش الطفيلية في العالم».

سجّل بوجيف هذه الملاحظة في مفكرته على عجل، فيما ظل فيسوكوفسكي يسير جنبه صامتاً. وسرعان ما ظهر في الممشى أرنب تجمّد في مكانه وكأنما بوغت بمفاجأة مرعبة، فأقعى على قائمتيه الخلفيتين وركز بوزه وأنظاره على الرجال الثلاثة.

- حيوان طيب - أثنى عليه أدريان أومريشيف.

- طيب حقاً، لا بأس به. - وافقه بوجيف.

ثم لاح خنزير أليف من مسافة غير بعيدة. اقترب من أومريشيف ولوى ذنبه القصير، فأُعجب الرجل بهذا التصرف، وأثنى على هذه البهيمة أيضاً.

إلا أن أومريشيف اشتاط غضباً حالما دخل مكتب فيسوكوفسكي. فالأوساخ كانت في كل مكان، وهناك آثار ومخلّفات لحيوانات كبيرة، وكأن الثيران راجعت المكتب في بعض شؤونها ودخلت بابه محنية ملتوية لتقضي حاجتها. والأوراق تستقر متناثرة تحت قناني تحليل بول الأبقار المريضة، والجدران غير مزينة تكسوها الخطوط البيانية والإحصائيات، وعلى الكرسي جنب المكتب جلس خنوص وكأنه أحد المراجعين.

- تلك خيانة عظمى - زعق أومريشيف، وأضاف صائحاً في وجه فيسوكوفسكي: - إنك تسيء إلى سمعة قيادتنا كلها. البهائم هنا لا تحترمك، فكيف تريد أن تدير شؤون ملاك كامل

من البشر. حالة هذا المكتب تستوجب الطرد مع التوبيخ.

- هدوءاً يا رئيس! - توسل إليه فيسوكوفسكي - خفِّض صوتك، فأنا أسمعك في كل الأحوال.

- أنت تستحق ضربة من الأنواء الجوية على الهامة - قال أومريشيف بصوت أوطأ - حتى تعود إلى رشدك.

- الأنواء الجوية مطر يا رفيق أومريشيف - أعلن فيسوكوفسكي بلامبالاة، فعقّب أومريشيف موضحاً فكرته:

- نعم. أنا أقصد ذاك المطر التاريخي الذي تساقط وابلاً من سجّيل في عهد إيفان الرهيب.

بعد ذلك أوعز أومريشف إلى بوجيف أن يبعث في طلب الحداد كمال والمحاسب الأصم الأبكم تشيكين والمسؤولة النقابية العجوز فيدراتوفنا، وكذلك بوستالويفا مع المهندس الموسيقار الذي وصل إلى السوفخوز لغرض ليس واضحاً حتى الآن. أومريشيف يحب أن يجمع الجهاز الذي يترأسه في لفيف أو شلة واحدة كالأقارب ليتجاذب أطراف الحديث مع مرؤوسيه دون أن يضع جدول أعمال مسبقاً.

* * *

دخلت بوستالويفا مأواها الجديد، فيما توقّف فيرمو في مدخله. وهو منزل عمومي وقتي مبني من الطين ومكسو بالطوب للتثبيت.

في النصف الأيمن من المنزل تنام الحالبات ومربيات الأبقار المتعبات، وفي النصف الأيسر يتعالى شخير الرعاة والسقاة وعمال الآبار والمشرفين على الإنسال وطلبة البيطرة وما إلى ذلك من الاختصاصات. وكان البعض جالسين على الأرضية الترابية يحررون رسائل إلى أهلهم وأصحابهم البعيدين أو يطالعون الكتب أو يرسمون أو يتأملون مستندين إلى مرافقهم.

وفي دهليز المنزل جثة مسجاة على طاولة كبيرة. كانت مغطاة بجوخ أحمر، إلا أن امرأة عجوزاً قميئة كالبرميل رفعت الغطاء عن رأس الجثة وأخذت تمسد الوجه البارد بيدها الأخرى.

- هذه آينا؟ - سألت بوستالويفا من العجوز.

- ومن عساها أن تكون؟ - أجابت العجوز منفعلة والتفتت بوجهها الشبيه بالصحن.

اقترب فيرمو من الميتة ليلقي عليها نظرة. فرأى فتاة سمراء، بملامح ربما قرغيزية، مستلقية على ظهرها، ووجهها شائخ حزين، وفمها مفتوح لم تقو على غلقه عندما خارت قواها في النزع الأخير. أزاحت بوستالويفا الغطاء عن الميتة وأخذت تتلمس بدنها بيدها وكأنما تبحث عن آثار الموت وعن الموضع الخفي لهلاك الفتاة. كما انحنى المهندس فيرمو هو الآخر على الجثة، ورأى البدن المكتنز بفعل الأنوثة وما كدسه من احتياطيات للأمومة، ولاحظ اليدين الكادحتين الصبورتين

تستقران بوهن على البطن. تطلّع فيرمو في قماش القميص، وهو من القمصان التي توزع في كل مكان على المتفوقات في العمل، وأحس برائحة العرق الذي لا يزال عالقاً مع نفايات الحياة الصعبة بعد أن انقطعت أنفاس الفتاة. لكن أمارات الموت لم تكن بادية للعيان في أيما موضع.

وعندما طوت بوستالويفا ياقة القميص وكشفت عن جيد آينا رأى الجميع حزاً قاتماً متخثراً حول الرقبة من أثر الحبل الذي ذبح البنت وقطع أنفاسها.

جاء أفاناسي بوجيف ودعا بوستالويفا والمهندس فيرمو إلى الاجتماع وقال:

- مات مليارات البشر عبثاً، فلماذا تشفقون لهذا الحد على فتاة واحدة؟ وهل بقي في الدنيا القليل؟ أشفقوا عليّ أنا إذا كانت الليبرالية العفنة تعشش في نفوسكم.

- لا داعي للإشفاق على الجميع. - أعلنت العجوز المتواجدة هناك - الكثيرون يستحقون القتل...

قالت العاملة العجوز هذا الكلام وأشاحت بوجهها من شدة الأسى. ولاذ الجميع بالصمت دون أن يفهموا معنى كلامها، ثم مضوا لحضور اجتماع العاملين في المراعي.

حينما وصل بوجيف مصطحباً المهندس فيرمو وبوستالويفا كان أومريشيف يتكلم من زمان دون أن يفهم عمّا يتكلم. كل ما هنالك هو شعوره بشيء ما طيب. كان يرسم للحاضرين مشاهد

من مختلف التدابير والفعاليات المرتقبة. فهو، مثلاً، ينوي تنظيم كل الأعمال في مراعي السوفخوز بحيث يصون كل فرد لسانه ويؤدي واجبه المحدود برفق ووئام ضمن النظام المعهود، ولا يتدخل في ما لا يعنيه.

- يجب أن يحوز كل شغيل على مملكة صغيرة من العمل حتى ينشغل فيها على الدوام ويكون سعيداً إلى الأبد - راح أومريشيف يطور تصوراته بصوت مسموع. - أحد الشغيلة، مثلاً، ينظف أماكن الرعي، والآخر يصلح جذوع تلبيس الآبار في السهوب، والثالث يتذوّق اللبن ليتأكد من درجة حموضته. كل شخص يؤدي واجبه حسب الخطة ولا يتدخل في ما لا يعنيه. أعتقد أن هذا النظام يوفر الفرصة لي ولكل القياديين للتفرغ من الأشغال اليومية الجارية، فهي تكفّ آنذاك عن الجريان. حان الوقت، يا رفاق، لبناء الاشتراكية ليس على الماشي وليس كما اتفق، بل بعناية الملايين وحرصهم.

ظل الحاضرون على صمتهم. واكتأبت العجوز فيدراتوفنا وأسندت ذقنها بيدها البنية اللون، وهي متأكدة في قرارة نفسها من صحة أفكارها. كانت تتطلع إلى أومريشيف كما تتطلع إلى أفّاك سافل.

- ما هذا؟ ما موضوع المناقشة وما هو جدول الأعمال؟ - سألت بوستالويفا.

- أنا لا أفهم شيئاً. - أوضح لها فيسوكوفسكي بحقد دفين. - استفسري من الرفيق المدير، فهو على علم ولا بد.

فيسوكوفسكي يحتقر أومريشيف، إلا أن برودة مشاعره اتسعت كثيراً وتعدّت هذا الأخير ربما إلى جميع القياديين في مجال تربية الماشية السوفيتية. على هذا النحو فهمت بوستالويفا المسألة. ومضى أومريشيف يقول:

- أتابع كلامي. ثمة مسائل متنوعة، غير محددة، درستها في المطبوعات القديمة وفي المطبوعات السوفيتية. أطفال الحفارين يولدون في الربيع، وأطفال قاطعي الأشجار يولدون في منتصف الصيف، وأطفال الرعاة في مطلع الخريف، وأطفال السواق في الشتاء. عاملات التركيب يلدن في بداية مارس، بينما تبدأ فترة الحمل عند الحالبات متأخرة في هذا الشهر نفسه. تلك فترة متأخرة جداً يا عزيزاتي. فالحمل في الصيف مرهق.

- لماذا تندب طول الوقت يا أبانا؟ لماذا تقول الحر شديد والحمل مرهق؟ سنتحمل. - قالت العجوز مغتاظة.

التفت أومريشيف إلى تلك العجوز لأول مرة، وانطبعت على وجهه العبوس مسحة من الرقة والتسامح. فقال بشعور عميق من المشاطرة:

- يا عجو..ز.

وأجابته العجوز بالقدر نفسه من الرقة:

- يا شيـ.ـخ.

- ألا تزالين على قيد الحياة؟

- وماذا عليّ أن أفعل، يا أبانا؟ - قالت العجوز بشيء من التفصيل. - تعوّدت على الحياة، وها أنا أعيش.

- أليست الحياة الراهنة غريبة عليك؟

- كلا، لا بأس بها... كل ما أخشاه هو التدخل الأجنبي... والأرق يعذبني أيضاً. فهل تغفو العين والهدير يدوي في الجمهورية كلها؟

- التدخل الأجنبي؟! تعرفين هذا المصطلح؟ لماذا تتدخلين في الكلمات والمصطلحات؟

- أعرفه يا شيخ. أعرف كل شيء. فأنا عجوز مثقفة.

- لعلكِ مافرا كوزمينيشنا، أليس كذلك؟ - تذكّر أومريشيف اسمها.

- كلا، يا شيخ - أجابته العجوز - كنت في السابق كوزمينيشنا، أما الآن فاسمي فيدراتوفنا، تيمّناً بالجمهورية الفيدرالية.

- ربما أنت متعلمة من الناحية الشكلية فقط، أم ماذا؟ - تساءل أومريشيف بشيء من الارتياب.

- كلا، يا شيخ، لقد اجتهدت لأكون مثقفة حقاً. - أجابت فيدراتوفنا، فنهض الشيخ الهرم وبدا عليه تأثر صادق، وقال بلهجة ترضية:

- دعيني أقبّلك يا عزيزتي، يا عجوزي المثقفة. - وقبّلها عدة مرات - أنت لم تتدخلي في ما لا يعنيك، وبلغت

الشيخوخة صامدة، كالمحارب، في وجه كل عوادي الزمن والطبيعة.

- وفي وجه العدو الطبقي أيضاً. - صححت له مافرا فيدراتوفنا - في وجهك، وفي وجه أفاناسي بوجيف، وكل الذين سيأتون بعدكما. . . فأنا أرى كل شيء، وأتدخل في كل شيء، وأشوش على الجميع! . .

- تكلمي، يا جدتي. - توسلت اليها بوستالويفا مسرورة - ليس عندنا جدول أعمال وبوسعك أن تتكلمي، فأنت تعرفين الوقائع.

- لا أعرف أية وقائع. - قالت فيدراتوفنا على مهل. - لكنني أحب الجمهورية كلها، وأتجول ليل نهار، وأتلمس ما هو موجود وما هو غير موجود. . . ولولاي لاستبدل الفلاحون الفرديون كل أبقارهم العجاف بأبقارنا السمينة من زمان دون أن يعلم بهم أحد. وحتى لو علم لما اعترض. فمن يشفق على جمهوريتنا الفيدرالية؟ كل واحد يشفق على نفسه فقط.

كانت ناديجدا بوستالويفا تتطلع إلى نيكولاي فيرمو في تلك الأثناء، وكان وجه المهندس يزداد شحوباً واكفهراراً. فهو يصارع يأسه، والحياة مملة، والناس عاجزون عن السيطرة على جنونهم وتفاهاتهم ليتفرغوا لبناء المستقبل. عندما تكلم بوجيف بطيبة قلب وبوجه صادق متفتح الأسارير وعينين رقيقتين تشعان بصفاء بروليتاري أنصت فيرمو إلى نأمات صوته وشعر بالارتياح. ولكنه عندما أدرك فيما بعد مغزى دهاء بوجيف في

رد تهمة العجوز أشاح بوجهه وبكى. كانت فيدراتوفنا على مقربة منه، فمسحت دموعه براحتها المعروقة وقالت:

- كفاك. أتظن أن الرأسمالية تزحف علينا، والروح تفارق السلطة السوفيتية؟ كفكف دموعك. سنصمد ونقضي عليهم.

تحيّر الجمهور. إلا أن بوستالويفا ابتسمت وأرادت أن تعرف سبب التوبة التي أعلنها أومريشيف وبوجيف. فالاتهام الذي وجّهته الجدة فيدراتوفنا غير معزز بالأدلة الثبوتية، وهي ربما كانت منزعجة من شيخوختها وليس من الواقع الطبقي.

اصطكّت أسنان بوجيف في صمت الغضب. فقد فهم رأساً الخطأ الفاحش الذي اقترفه عندما ارتعب من اتهام صدر عن عجوز بلا أسنان. فلا أحد هنا يعرف الواقع على حقيقته. فيما راح أومريشيف يفكر صامتاً: «عوّدت نفسي طول الوقت على عدم التدخل، وها أنا أتدخل وأعلن التوبة أمام العجوز. لقد هلكتُ. وقعت في داهية. من طلب مني أن أتدخل؟ باللّه، من؟ لمَ لا أعيش بصمت بائس مثلما يعيش المليارات الآخران من البشر على وجه البسيطة؟».

ندت عن بوجيف ضحكة مفتعلة وهو يقترح على الحاضرين الانتقال إلى مناقشة الشؤون اليومية، لأن الجدة السوفخوزية المحترمة فيدراتوفنا تفهم تماماً، كما قال، أن كل ما يريده، هو وأومريشيف، أن يلبّيا رغباتها وألا يعترضا عليها مطلقاً. هذا أمر واضح أقدما عليه تقديراً لفترة خدمة فيدراتوفنا الطويلة، وليس لاعتبارات فكرية. فيما قال أومريشيف باكتئاب إنه، من

زمان، ما كان يسمح لنفسه أن يخطئ، ذلك لأن الوقوع في الخطأ يأتي بسبب التدخل في شيء أو أمر ما، في حين أنه هو، أومريشيف، لم يتدخل في أي شيء من زمان، وخصوصاً في المسائل العقائدية. واختتم الشيخ الهرم كلمته قائلاً:

- أيها الرفاق! لا نزال جالسين هنا بينما حل الغروب ويخيّم المساء في الخارج. انظروا، ما أجمله. ثم انظروا إلى هذه العجوز السوفيتية (أومأ إلى فيدراتوفنا)، ألا تجسّد غروب الرأسمالية مندمجاً مع فجر الاشتراكية؟ أفلا يسرّنا أن نقول لهذه المرأة الطيبة، عمة المستقبل وحَماة الماضي، كلمة ثناء ومديح حتى تطمئن خالية البال في شيخوختها؟

في تلك اللحظة أمسكت فيدراتوفنا بلحية أومريشيف الكثة، فلم يصدر عنه صوت. لقد صمّم أن يتحمّل هذا التصرف كأي تعذيب رخيص. فيما احتضن بوجيف العجوز برفق، لتهدئتها من جهة وحماية أومريشيف من جهة أخرى. إلا أن فيدراتوفنا استدارت نحو بوجيف وصفعته على خده، فلم يتجرأ على الزعل منها. وفي الليل حطم بوجيف كل قرعات المبيت، نزولاً عند متطلبات الزمن، ليعزز مواقعه السياسية ويخفف من قساوة الحياة.

* * *

في اليوم التالي حمل اثنان من الرعاة الذين كانوا في إجازة تابوت الحالبة آينا. وسارت وراء التابوت رفيقتها المسؤولة

النقابية، مع أن المرحومة ما كانت تسدد بدلات العضوية، وكان هناك أيضاً الحداد كمال، وهو يتنهّد ويتأوّه طول الوقت بفعل قوة غير مفهومة. وبعده يأتي أومريشيف وبوجيف. وبمعزل عن الجميع تسير ناديجدا بوستالويفا ممسكة بيد محمد، شقيق آينا الأصغر. ويتقدم موكب الجنازة المهندس فيرمو وهو يعزف على أكورديون أخذه من أحد الرعاة لكي يتم التشييع بمصاحبة الموسيقى حسب الأصول.

المدفن بعيد. أكثر من كيلومترين. وقد اختار رفيق آينا، الحداد كمال، موضعاً رملياً ناشفاً حفر فيه قبراً للفتاة حتى تبقى هناك سليمة أطول أمد ممكن.

عندما ابتعد الموكب مسافة أخذ نيكولاي فيرمو يعزف، عن ظهر قلب، «أباسيوناتا» بتهوفن، وشعر في تلك الأثناء بالانشراح والانتصار وبرغبة في الانتقام من العالم كله لنصرة الإنسان الهضيم الذي يشيّعون جثمانه الآن. جوهر الحياة القاسي الرهيف يتململ في تلك الموسيقى بعد أن عجز حتى هذه اللحظة عن بلوغ هدفه في مجريات الواقع المعاش. والمهندس فيرمو يشعر بالسعادة الآن لأنه يدرك أن هذا الجوهر المتوتر الخفي هو البلشفية، ولأن الموسيقى تصدح الآن ليس في محراب الفنون فقط، بل وفي هذا المرعى من خلال عمل الفقراء الذين جيء بهم من كافة أرجاء الأرض اليائسة.

أنارت الشمس، من سمائها الخالية، رحاب الأرض وموكب المشيعين. وتصاعد غبار أبيض من رمال محومة في

أعالي الجو بزوبعة لا تسمع أصواتها من تحت، فيبلغ ضوء الشمس سطح الأرض مكفهراً متعباً وكأنه يخترق حجاباً من لبن. القيظ والضجر ينبسطان على سهوب الآرال وقزوين. حتى الأبقار التي خرجت لترتعي العشب توقفت في يأس وقنوط، تجاوباً مع كآبة الطبيعة، وفي أدمغتها يدور هذيان مجهول. وكان فيرمو آنذاك يترجم الوقائع المحيطة به في الخارج إلى أحاسيس باطنية ويفكر بضرورة التغيير السريع لعالم جُنت فيه حتى البهائم. وعبر غشاوة هذا الاكتئاب الثقيل سأل فيرمو بوستالويفا عن التصورات التي عنَّت لها وهو يعزف موسيقاه، فأجابته:

- تصورتُ معركة نخوضها ضد طبقة أثرياء الريف، وموسيقاك تحفزنا.

عزف فيرمو هذه المرة قطعة من تأليفه يلوح فيها أمل باقتراب ذلك اليوم الذي يُقتل فيه آخر سافل على وجه البسيطة. وهو يريد بالطبع مصيراً بهيجاً للبشرية، ولم يحاول أن يتصور ذلك المصير تحديداً. فأكثر ما يريده الآن هو القضاء على جميع أعداء الكادحين والمبدعين.

فكانت ألحانه بسيطة في شعورها بالألم وقريبة من نطق الألفاظ الغاضبة في تعبيريّتها. إحدى قطعاته الموسيقية تتميز بهذه الصفات، فعزفها هي بالذات عندما اقترب المشيّعون من المدفن الرملي في السهب. ولم يفهم أومريشيف وبوجيف موسيقى المهندس فيرمو، فتصورا أن لها مغزى أليماً لا أكثر، وبكيا قليلاً بدافع من اللياقة.

جلست فيدراتوفنا قرب القبر المكشوف تحدّق في باطن الأرض. لم تكن تخشى الموت، كل ما يشغل بالها الآن هو المصير الذي تؤول إليه طاقاتها الفاعلة عندما يوافيها الأجل، ومن سيتألم آنذاك، بصدر شائخ هرم، على أحوال السوفخوز. التفتت إلى بوجيف قائلة:

- بكاؤك قليل. هل جئت ناشفاً تماماً؟

فأجابها:

- الريح تبدد الدموع، يا مافرا فيدراتوفنا.

- الريح؟! - دهشت فيدراتوفنا - أدر وجهك عنها، وابكِ. . .

أدار بوجيف رأسه وحاول أن يستدرّ المزيد من الدموع العصية، وهو يمسّد جبهته هابطاً بيده إلى ما تحتها. فانتظرت فيدراتوفنا قليلاً، ثم اقتربت منه ولمست وجهه، وذاقت بلل دموعه بلسانها وقالت:

- أهذه دموع؟ إنها ليست مالحة. هذا عرق. إنك تزيح العرق من جبهتك وتبلل به عينيك. ماذا تفعل يا حثالة البشر؟

- واللّه دموع. لسانك لا يشعر بطعمها، يا مافرا فيدراتوفنا.

- لساني لا يشعر - أصرّت فيدراتوفنا. - حتى لو شعر لساني فأنا لا أثق به، إنني أثق فقط بعقلي وبحزب البلاشفة.

في تلك الأثناء وضعوا تابوت آينا على حافة القبر. وتحلّق

الحاضرون حول الفقيدة يتطلعون في وجهها الذي أكلته قوى الموت والفناء، فغدا شائخاً مثل وجه فيدراتوفنا.

- وداعاً يا بنتي! - قالت مافرا فيدراتوفنا وانحنت على الفقيدة وقبّلتها. كان الوهن بادياً على بدن العجوز بعد أن خارت قواه من الشيخوخة ومن الهموم والحقد على العدو الذي لا يزال حياً نشيطاً.

طبعت ناديجدا بوستالويفا على جبين الفتاة القرغيزية المسجاة عدة قبلات حرّى، فيما اكتفى أومريشيف بأن لمس جبينها قائلاً: «هل من موجب للحزن أو الاستغراب من الموت؟ فهو حاضر دوماً في مجريات التاريخ».

ودّع المهندس فيرمو الفقيدة قبل أفاناسي بوجيف الذي كان آخر المودعين. قبّل جبينها وفكر بأنه كان يمكن أن يتزوجها لو بقيت على قيد الحياة. أما بوجيف فقد انحنى عليها وانتحب بصدق.

- يتظاهر بالبكاء بسبب خوفه. فهو في الحقيقة لا يشعر بالمصيبة. - قالت فيدراتوفنا في محاولة لتقييم أحزان بوجيف.

إلا أن هذا الأخير رفع رأسه، فرأى الجميع آثار الحزن بادية على وجهه. فيما هبط الحدّاد كمال إلى المدفن وأنزلوا له التابوت فوضعه برفق في باطن الأرض وأطبق غطاءه بالمسامير عازلاً الفتاة إلى الأبد عن أعدائها وأصدقائها، عن الحياة التي كانت تحبها تلك الشابة اليافعة الناشطة بين أعضاء الكومسمول.

اقترب محمد، شقيق آينا، من بوجيف، ولم يكن حزيناً على أخته، بعد أن بات مظهرها مفزعاً غريباً عليه، وقال:

- يا عم، بقي حبلك عليها، كانت تتمنطق به. والأفضل أن تأخذه.

رفع كمال غطاء التابوت وحل الحزام. كان من الحبال المفتولة التي تُستخدم في صنع السياط. سلّم كمال الحبل إلى بوجيف وأغلق التابوت من جديد. فقال محمد بلامبالاة مخاطباً بوجيف، وهو ينظر إلى الحبل المفتول:

- كنت تسوطها به، وهي تتألم. حتى ماتت، وبقيتَ وحدك مع الحبل.

* * *

وصل رجال إلى سوفخوز «أحواش الوالدين»، وكان عددهم كبيراً. فأجرى أحد أهالي موسكو، وهو من أعضاء الهيئة الإدارية لمؤسسة تربية المواشي، ما وصفه بالدراسة المعمقة للسوفخوز بمجمله. وعاونه في إعداد الدراسة سكرتير نحيل للجنة الحزبية في أقرب ناحية إلى المنطقة. ولم يكن أومريشيف رهن التوقيف آنذاك. فأخذ يقدم للمسؤولين توضيحات غامضة أراد لها أن تحيّر الجميع. سأله سكرتير لجنة الناحية:

- هل نشرت في السوفخوز شعارك المعهود: «لا تتدخل؟»

- طبعاً - أجاب الشيخ الهرم بطيبة خاطر. فكلما جاء السؤال أكثر جدية كان أومريشيف يجيب عليه بمزيد من الطيبة والتفصيل. وأضاف: - تدخّل بوجيف في شؤون آينا فأهلكها وهلك. هذا الشعار، يا رفيقنا العزيز، منتشر في العالم بأسره من عهد إيفان الرهيب، وهو رجل عميق التفكير. راجع معطيات التاريخ. وإذا كنت تريد المزيد فبوسعي أن أعطيك شيئاً للمطالعة.

- كلا، لا أريد. - ردّ عليه السكرتير. - أسألك، إذن، في أمر آخر: ما كمية اللبن التي تضيع يومياً في المروج؟ ما كمية اللبن الذي يحلبه الفلاحون الأغنياء في الريف من أبقار السوفخوز؟ هل يمكنك أن تجيب؟

- كيف لا؟ - قال أومريشيف - عجوزنا فيدراتوفنا دسّت أنفها في كل مكان وأخبرتني أن كمية ذاك اللبن ألف دلو تقريباً. ولو لم تتدخل العجوز لما بلغك النبأ ولما طرحت مثل هذا السؤال.

- طيب. - قال السكرتير بهدوء وهو يداري غضبه بصمت. - كم عدد الأبقار الأصيلة التي استبدلها الأثرياء بأبقارهم الهزيلة، بمساعدة بوجيف طبعاً؟

- أنا لم أتدخل في هذه الحسابات. - أجاب أومريشيف. - لقد طبقت بهذا الخصوص تكتيكاً عميقاً وسياسة مبدئية. لا ضير إذا استبدل أحد من الأثرياء أو الفقراء أو غيرهم بعض

ماشيتهم بماشيتنا. الأثرياء ستصادر أموالهم، والفقراء سينتسبون إلى الكولخوز، كما ستكون ماشية السوفخوز كلها، آجلاً أم عاجلاً، في القطاع العام. وفي ذلك تحديداً يتجلى تأثير السوفخوز الإيجابي المثمر والقيادي على مستقبل الكولخوزات التعاونية. هل أنت فاهم؟

- أنت أحمق دنيء. - قال السكرتير بصوت خافت وقد شحب لونه من الآلام المحبوسة. - الفلاحون الأثرياء سينحرون ماشيتنا الأصيلة، أما ماشيتك الهزيلة فستعود علينا بالخسائر والأوبئة.

- أي منها ماشيتك وأي منها ماشيتي؟ - سأل الشيخ الهرم. - ملكيتي هي الأفكار وليس الأبقار. ومعي بطاقة عضوية الحزب. فلا تتدخل كثيراً، يا أخي.

- أنت على حق، - قال له السكرتير - لأن بطاقة العضوية معك، وأنا على باطل لأن البطاقة عند سافل مثلك.

نهض أومريشيف بكامل قامته ليعبّر عن استنكاره بأكبر قدر من الشجاعة، لكن الفواق داهمه بسبب الرعب الذي شل أعصابه، فقال متلعثماً:

- أنـ..أنا... قر.. قرأت كتباً... أر.. أريد... تاريخياً... انظر إليّ بو..بوصفي...

- بوصفك انتهازياً ألكن. - قال السكرتير.

- ولو به.. بهذه الصورة. - وافقه أومريشيف متلعثماً.

- بوصفك أحد الأثرياء السفلة والقاتل الثاني للفتاة القرغيزية.

وهنا نسي أومريشيف فواقه ولم يعد يتلعثم.

حوّل سكرتير لجنة الناحية بصره إلى النافذة الصغيرة في منزل الرعاة وأخذ يفكر في النهار الصيفي الذي يلمع من وراء الزجاج. تصور جمال العالم المنير بأجمعه ينبعث بشق الأنفس من تناقض المادة الشديد وارتعاشاتها الممضة في الصراع الأعمى. والأمل الوحيد للمادة المتحجرة المتعبة معلّق على شق الطريق إلى المستقبل من خلال حقيقة الوعي البشري، من خلال البلشفية، لأن البلشفية تسير في مقدمة الطبيعة المعذبة، ولذا فهي أقرب الجميع إلى فرحتها، ذلك لأن التوتر الحزين لن يبقى طويلاً على الأرض. وبعد هذه الفكرة التي دارت في بال السكرتير تذكّر ناديجدا بوستالويفا. فإن شعرها الفاحم الساحر وفمها المتواضع وعينيها المفعمتين دوماً بشعور صادق متململ جعلت سكرتير لجنة الناحية يتصور، بشكل غير مألوف ولا موجب له، أن هذه المرأة تكشف، بكيانها وحده، عن التمسك بخط الحزب، وأن رأسها وبدنها وكل حركة تصدر عنهما إنما تستجيب للشيوعية وتؤمن مستلزمات قدومها الحتمي الوشيك. فإن بوستالويفا كانت ستموت لو انتصر أثرياء الريف أو البرجوازية الصغيرة. إلا أن البلشفية عوّدت السكرتير على تحليل الواقع وتجزئته دون رحمة. فقال في نفسه دون التفات إلى أومريشيف: «لعلّي أحب بوستالويفا بصورة غير موضوعية،

فأضفي عليها هالة مثالية وألبسها فستان الزفاف... لكنني تأخرت. كان يجب أن أعيّنها من زمان مديرة للسوفخوز كي تكشف عن قابلياتها عملياً، وعندذاك سأحبها بأشد من الآن أو أتخلص من حبها نهائياً...»

حمل أومريشيف غيظاً شديداً على كل خلق اللّه، حتى شد العزم على الرحيل إلى الربوع النائية في سيبيريا ليعمل سكرتيراً هناك ويؤسس مملكة انتهازية محلية غير معلنة، على غرار الدولة الروسية القديمة في عهد إيفان الرهيب أو على غرار قبيلة الميشور التي قرأ عنها في الكتب. فلن تكون هناك نتيجة على أية حال. وقد يحل الهدوء في موضع ناءٍ على الأقل. أما العيش في تلك الأنحاء فهو ممكن حتى بزراعة القنب وحده، بل الجوع أفضل من العذاب في حياته النظرية بهذه الأنحاء.

- كيف سيكون موقف الحزب تجاهي؟ - سأل أومريشيف. - ربما سيكرهني.

- لا جدال في ذلك. - قال السكرتير وطلب من الشيخ أن يمضي إلى المدعي العام الذي كان ينتظره من زمان على التلة جنب المرعى.

- سأتدخل، إذن، في ما لا يعنيني، وعندذاك سيحبني على أية حال. - توعّد أومريشيف وانصرف.

حل المساء، وراح السكرتير يحتسي الشاي. نادى بوستالويفا والصبي محمد ليطعمهما ويسقيهما. أما فيدراتوفنا فقد جاءت بنفسها، من دون دعوة، وراحت تولول بلا انقطاع

متشكية من مماطلة مكتب الناحية في إرسال المواد الإنشائية إلى السوفخوز ومن تأخُّر تحويل السلف والقروض المقررة ومن ضعف النشاط الثقافي التوعوي بين الرعاة، فهم لا يعتزون كثيراً بمكانتهم ومنصبهم بحد ذاته. كانت تبكي بدموع ساخنة، لأنها تشعر بألم بالغ يعتصر الفؤاد، وتعوّض باحتساء الشاي عن قواها الخائرة. وعندما تذكرت آينا القرغيزية اشتدت أحزانها إلى أبعد الحدود. فقد كان واضحاً لها تماماً أن بوجيف عدو طبقي، لكنها لم تصدق بحدسها وفؤادها المتألم، فظلت تنتظر الوقائع وتبدي قدراً من الليبرالية والتساهل معه، وبذلك ساعدت موضوعياً على مقتل الفتاة.

- الجدة حمقاء. - قال الصبي. - إنها تبكي دوماً فتعيش، أختي لم تبكِ أبداً ولم تعش...

- تعلمتَ الثرثرة من أعوان الأثرياء. - قالت له العجوز.

- أنا أخاف من الروضة. - ردّ عليها الصبي.

- وما الذي يخيفك؟ - سألته بوستالويفا.

- هناك شيخ ملتح معلّق على الجدار مثل الصورة. - قال محمد. - إنه خطيب هذه الجدة...

فهم السكرتير وبوستالويفا ما يقصده الصبي الصغير وضحكا، فيما اغتاظت فيدراتوفنا دفاعاً عن كارل ماركس، رغم تأكيد السكرتير لها أن ماركس نفسه كان سيبتسم لو سمع هذا الكلام. وسأل السكرتير محمد:

- هل عرفتَ لماذا توفيت أختك؟

- تقول الجدة إنها ماتت بسببها. لأن اليقظة الطبقية ضعفت عند العجوز - أجاب الصبي - والحقيقة أن أفاناسي هو الذي عذّب أختي حتى الموت وليس الجدة العجوز.

تصور الصبي عذابات أخته بوضوح تام. كانت تقيم على مسافة عشرة كيلومترات عن السوفخوز، في كوخ طيني جنب المرج الأبعد. وكان أفاناسي بوجيف يأتي على ظهر حصانه ملوّحاً بالسوط. والحالبات، ومعهن آينا، لا يغتسلن في الحمام، فلا حمام هناك، ولا يطبخن الحساء. العمل كثير والنوم قليل. إلا أن آينا لم تكن آسفة على هذه النواقص، فهي تريد أن تبني الاشتراكية، ولا يسيئها أنها تحكّ جلدها بأظافرها من تحت القميص. كان بوجيف يأتي راكباً. يأكل الفطائر من كيسه، ثم يأخذ كل الرعاة، ولا يترك إلا واحداً منهم لخمسمئة بَقرة مع الثيران. وفي الليل يتفرق القطيع والراعي يغط في نومه. وفي الصباح التالي ينتحب متباكياً وكأنه في خوف شديد وأسى بالغ. فالأبقار السمينة البنية اللون بدأت تختفي من القطيع وتحل محلها أبقار عجاف أو قميئة تقضم الكلأ جزافاً دون أن تسمن، ولا تدرّ من اللبن سوى أربعة أقداح. حتى ثيران الإنسال الأصيلة كانت تختفي وتأتي بدلها ثيران غريبة، هزيلة مكتئبة، ترفسها أبقار السوفخوز، فلا تردّ عليها بالمثل، بل تبقى ساكنة صامتة لا تجيب.

لم تعد آينا تنام الليل. أخذت ترعى القطيع وتتجول في

الظلمة حتى رأت فلاحين يأتون على ظهور الخيل ومعهم أبقارهم وثيرانهم العجاف يتركونها في المرج ويأخذون بدلاً منها أبقار السوفخوز السمينة. تقفّت آينا آثار الغرباء حتى وصلت إلى قرى السهب، فعادت أدراجها، ومضت إلى إدارة السوفخوز لتستنجد بالرجال وبنادقهم. إلا أن بوجيف اعترض سبيلها وأمرها بأن تعود من حيث أتت. وقال: «أنت تريدين أن تهربي من القطيع. إنك متسيّبة. وإلى ذلك تكذبين. سأحصي عدد الأبقار بنفسي وفقاً للقائمة». وعندما أحصاها كان العدد صحيحاً. انهال بوجيف على آينا بالمزيد من اللوم والتقريع: «لا بدّ من تزويجك يا بنت، فقد جننت. الأبقار الخمسمئة كلها موجودة، فهل تتذكرين أبوازها جميعاً؟».

- نعم. - أجابت آينا ومضت من القطيع راكضة إلى السوفخوز. تركها بوجيف تركض مسافة، ثم لحق بها، وانهال عليها بالسوط لتسيّبها ونيّتها في إفساد خطة تغذية العمال والمستخدمين، كما قال فيما بعد.

سقطت الفتاة على الأرض. فرفعها بوجيف وأوصلها إلى كوخها. وسرعان ما بعث راعياً جديداً، لأن الراعي الأول اختفى مع عشر أبقار وثور للإنسال. صار الراعي الجديد يقتاد القطيع بعيداً، ويعود به، في المساء، وضروع أبقاره خاوية. كانت آينا فطينة، فحزرت أن نساء الفلاحين الموسرين يحلبن أبقار قطيع السوفخوز بعيداً عن الأنظار. ومضت الفتاة على جناح السرعة سراً إلى المدير أومريشيف، لكنه قال لها: «لا

تتدخلي في ما لا يعنيك. أنت حلابة، فاعملي تحت الضروع. هل جننت؟».

لم تعد آينا إلى القطيع، بل مضت إلى اللجنة الحزبية في الناحية. وتبعتها اثنتان من صويحباتها الحالبات قررتا الفرار من الحياة في السهب إلى الأبد. ولكن آينا ماضية لغرض آخر، في أمر يخص القطيع. فيما راح بوجيف يلاحق الفتيات الثلاث على ظهر حصانه. تعقّبهن ساعات طوالاً، وكنّ يختبئن عنه حيثما أمكن. وأخيراً لمحهن من على حصانه. لحق بهن وانهال على آينا بسوطه من جديد، مبرراً فعلته بأنها من بنات القرويين الأثرياء تسعى إلى تشويش الانضباط وتشجع الأيدي العاملة على الفرار من السوفخوز. فقالت له آينا إنها ذاهبة لتتزوج من سائق جرار، فطلب منها بوجيف أن تُريه إذن الزواج. وضربها مجدداً عندما لم يجد لديها الإذن المطلوب. إلا أن بوجيف لم يحتجز الحالبتين الأخريين، ففرّتا مسرورتين لنجاتهما واختفتا دون أن تخلفا أثراً. وعندما انفرد الرجل مع الحالبة آينا في ذلك الموضع الخالي أدرك واقع الأمر، وارتعب خوفاً من الموت الذي قد يطاله بسبب اعتدائه عليها. وفجأة شعر بحب لها، ورغب في عناقها بشدة حتى يبلغ حبه قلبها ويكفّر عن كل ما فعله بها، فتسامحه وتوافق على الزواج منه. اكتنفه شعور من الطيبة وظل يبكي حتى المساء عند أذيال آينا المسكينة متشبثاً بساقيها المعذبتين. ثم أخذ يجوب الكثبان الرملية ويركض مندفعاً من شدة الشبق. في تلك الأثناء ظلت آينا تمانع طول

الوقت، حتى عزمت على مواصلة الطريق إلى مركز الناحية. إلا أن بوجيف لحق بها من جديد وسار خلفها صامتاً بعد أن أطلق سراح حصانه. وفي المساء انهال عليها بضرب مبرح، فهوت على الأرض متعبة معذَّبة. ثم أنشبت أظفارها في حنجرة بوجيف وهي تحت بدنه. إلا أن قوة الرجولة حشرجت في تلك الحنجرة وأنقذته من الموت، فيما خارت قوى الفتاة واستولى عليها النوم. وفي الصباح التالي عدّل بوجيف ثياب شقيقة محمد الممزقة، وبحث عن حصانه حتى وجده، ولفّ حبل السوط على خصر الفتاة وحملها إلى المرعى، وهو يلاطفها ويلمس كتفيها بصدق وإخلاص، ويقول لمن يصادفه في الطريق إنه سيتزوجها قريباً لأنه وقع في غرامها. هدأ روع آينا، وحصلت على إجازة ليومين متتاليين، فاغتسلت في حمام السوفخوز، وراحت تتجول مع شقيقها محمد في المرج، وتقبّله برقّة بالغة جعلت الدموع تسيل من عينيها إشفاقاً عليه. وفيما بعد حدّثت محمداً بكل شيء، كما لو كان كبيراً. ثم مضت إلى حانوت التعاونية لتشتري الحلوى. إلا أن الليل كله انقضى دون أن تعود. وفي الصباح رآها الناس مشنوقة عند البئر وتحت قدميها كيس الحلوى وأجرة أربعة أشهر.

* * *

صدر الحكم بحق بوجيف فنُقل إلى سجن المدينة. ذات يوم اقتادوه إلى باحة السجن وأوقفوه جنب السياج المبني من

قرميد قديم كبير الحجم. تسنّى له، في لحظات، أن يتفحّص ذلك القرميد البالي الذي لا يزال يستقر حتى الآن في جدران القلاع الروسية العتيقة، فتلمسه بيده من خلال الأحزان. وبعد ذلك، وهو يستدير، أطلقوا النار عليه. أحس بهبّة شديدة تضرب صدره بحدّة وصلابة، ولم يسقط عندما تلقّى تلك الضربة. فقد انزلق على الجدار وهوى إلى تحت، وقضى نحبه.

أما أندريان أومريشيف فقد استطاع أن يُقنع أحد المسؤولين في مركز الناحية بأنه يمكن بمرور الزمن، ووفقاً لقوانين المادية الديالكتيكية، أن يتحول إلى نقيضه، ولذا أرسلوه للعمل في الكولخوز القريب من سوفخوز «أحواش الوالدين» واكتفوا بتوبيخ شديد اللهجة. وهناك صار أومريشيف يتصرف بعكس أفكاره. ما إن ينوي القيام بنشاط ما حتى يتذكر أنه جُبل على الانتهازية فيفعل العكس. وحظيت أفعاله المعكوسة بنجاح لبعض الوقت، ما جعل الكولخوزيين ينتخبونه رئيساً لتعاونيتهم. إلا أن مصيراً كالحاً كان من نصيب أومريشيف فيما بعد، وقد عرف الجميع به في حينه...

* * *

قبل أن يغادرا قرر عضو الهيئة الإدارية لمؤسسة تربية المواشي وسكرتير اللجنة الحزبية في الناحية، تحويل مروج «أحواش الوالدين» إلى سوفخوز مستقل لإنتاج اللحوم، وعيَّنا ناديجدا بوستالويفا مديرة له، كونها تتحلى بحكمة الشباب

المفعمة بالفضول التاريخي، وتمتلك قلباً فتياً يتقد نشاطاً لا يكل.

اتخذت بوستالويفا من مافرا فيدراتوفنا معاونة لها، وعيَّنت نيكولاي فيرمو بوظيفة كبير مهندسي السوفخوز. وجاء البيطري فيسوكوفسكي إلى كوخ بوستالويفا الطيني وهنأها بالمنصب الرفيع في لهجة مؤدبة جاهداً في إخفاء فرحته الإنتاجية. فهو يأمل أن يتجدد تطور عالم الحيوان في ظل الاشتراكية بعد توقفه في العهود السابقة، وأن تبلغ مستوى الحياة الواعية تلك الكائنات المسكينة التي استطالت أصوافها وتعيش الآن في حيرة ذهنية وارتباك. وقال فيسوكوفسكي:

- الهوة القائمة بين المدينة والقرية تُردَم الآن. ويبدو أن علم الطبيعة الشيوعي سيجعل عالم النبات والحيوان أكثر قرباً من الإنسان... لا بدّ من تجاوز الهوة السحيقة بين الإنسان وباقي الكائنات الحية...

- ستكون الأمور أفضل بكثير - وعدته بوستالويفا - فإن أبعد حلم من أحلامك لن يسبق على أية حال طموحات حزبنا... سنمدّ جسراً أبدياً بين الأحياء والجمادات.

عاد فيسوكوفسكي أدراجه بعد أن أخذ من زريبة السوفخوز خنوصاً أعجبه.

وعكفت بوستالويفا على دراسة الخطط والتوجيهات، ثم بعثت في طلب فيرمو وفيدراتوفنا. وقالت:

- يا فيرمو، في العام الفائت أنتجت مزرعة «أحواش الوالدين» خمسمئة طن من اللحوم، والمطلوب منا في العام الحالي ألف طن، في حين أن زيادة رؤوس الماشية تعادل عشرين في المئة فقط، ذلك لأن المروج غير فسيحة والمياه شحيحة. . .

فأجاب المهندس فيرمو باسماً:

- نحن ملزمون بالتنفيذ يا ناديجدا. موسكو تدعونا إلى الإبداع والابتكار. ليس بالإمكان تنفيذ هذه الخطة بالعمل المبتذل المعتاد. وهذا يعني أن المركز يثق بقدراتنا. . .

- الحزب يحب الجماهير حباً جماً - أدلت فيدراتوفنا بدلوها - ولذا يقيم وزناً كبيراً لحكمة الجماهير. وبدون الحكمة لن نتمكن من تنفيذ هذه الخطة إطلاقاً.

- سنجهّز ثلاثة آلاف طن من لحم البقر - قالت بوستالويفا - فنحن طبقة عاملة مبدعة، وليس مجرد شغيلة، أليس كذلك يا رفيق فيرمو؟

لم يحر المهندس جواباً. كان يفكر في الآمال العريضة التي يعلّقها الحزب على الإنسان العملاق، ابن الشارع، الذي يقود الجموع إلى الأمام. وهي الآمال نفسها التي كان لينين يطمح إليها قبيل ثورة أكتوبر 1917.

- لا موجب للسؤال. - قالت فيدراتوفنا - الجماهير متعطشة أكثر من اللزوم إلى الحياة الجديدة الوضاءة. ولن يوقفها أحد.

مضى فيرمو إلى مرج الشيح. وما إن تأهب للتفكير في كيفية تنفيذ الخطة الضخمة الجديدة حتى لفحت وجهه ريح تحمل من بعيد رائحة قش محترق. وتذكّر أن هذه الريح ليست غريبة عليه، إنها نفسها لم تتغير. والذي تغير إنما هو بدنه بعدما نما وترعرع. إلا أن شيئاً صغيراً ظل مستقراً في أعماقه وجعله يتذكر الآن هذه الريح الدافئة الفوّاحة بدخان الأفران البعيدة، هذه الريح التي هبّت في وجهه للمرة الثانية قادمة من تلك الأماكن النائية. عاد فيرمو يراجع نفسه، وتحسس قلبه المغمور بالسعادة، فيما ينضح البدن، كما في الطفولة، بوهج الحياة الزاخرة. فمتى هبّت تلك الريح في وجه المهندس فيرمو للمرة الأولى، يا ترى؟ التفت إلى «أحواش الوالدين» فرأى الدخان الفاتر يتصاعد وجلاً من مدخنة فرن المطبخ. ولعلهم يعدّون هناك طعام الغداء. الوقت صيف، وكآبة الشباب المتنامي تزداد، ومعها ينبسط على العالم المتموج أمل في مستقبل لم يأتِ بعد. كان فيرمو سبق وأحس بمثل هذه الكآبة في زمن ما، في يوم بات منسياً الآن. نعم. لا توجد في سوفخوز «أحواش الوالدين» طاحونة كالتي في مسقط رأسه وموضع فتوّته. ولا يوجد في السوفخوز بيت ينتظر مقدمه، وفيه أم وأب يتشوقان إليه. وبالمقابل هناك بوستالويفا وفيدراتوفنا وفيسوكوفسكي. أما الطاحونة فيمكن تشييدها. . . تذكّر فيرمو ذلك اليوم من صيف طفولته في أطراف البلدة التي ولد فيها، وتذكّر تلك الريح التي حملت له آنذاك دخان حياة بعيدة لأناس لا يعرفهم.

الطاحونة لا بدّ أن تشيد في السوفخوز الآن تحديداً. قوة الريح تكفي حالياً لاغتراف الماء من البئر. وفي الخريف والشتاء، عندما يشتد هبوبها، يمكن استخدام قوة تيار الهواء لتدفئة زرائب الأبقار التي تعاني من البرد والهزال على مدار ستة شهور. فلتتحول رياح السهوب إلى طاقة كهربائية تدفئ الأبقار وتحفظ أبدانها من النحول وتصون لحمها، فلا يجففه ويبدده زمهرير الشتاء. حان الوقت لتحويل رياح الخريف الكئيبة، وزوابع الشتاء الثلجية التي تعوي في حياة بدون مأوى، إلى دفء وحرارة تمكن الناس من خبز الرغيف والفطائر حتى في زوابع الثلوج.

في المساء أطلع المهندس فيرمو المديرة بوستالويفا على رؤيته لكيفية تدفئة السوفخوز بلا وقود. وفي الحال استدعت المديرة كلاً من فيسوكوفسكي وفيدراتوفنا والحداد كمال واثنين من العمال، فاستمعوا جميعاً إلى المهندس. وعقّب كمال على الموضوع مشدداً أن التدفئة بقوة الريح لا خسارة فيها، وأنه نفسه فكر في هذا الأمر على نحو آخر، نظراً لجهله بالكهرباء. فقد أراد للريح أن تدير جذوعاً أو أخشاباً تتسخن بالاحتكاك حتى تستعر وتبعث الحرارة المطلوبة. إلا أن هذه الفكرة تبدو فجة وغير ناضجة من الناحية الفنية.

- وهل كمية الكيلوواط-ساعة تكفينا؟ هل حسبت الأمبيرات مع الفولطات؟ - تساءلت العجوز فيدراتوفنا لتمتحن المهندس فيرمو لا غير، وأضافت: خذ بالك، ما دمتَ مطّلعاً

على التكنيك. . . فمن أين لك بالأسلاك وباقي التجهيزات والمعدات؟ منذ سنتين ونحن نسعى دون جدوى للحصول على المسامير والأخشاب والألاباستر والنورة، ولا أحد يعطينا شيئاً. . .

- سأذهب بنفسي إلى مركز الناحية والإقليم وأجلب كل ما يلزم. - قالت بوستالويفا وتحولت إلى خطة اللحوم من جديد. - خبّرني، يا فيسوكوفسكي، ما كمية اللحوم التي سنجهزها إذا دفأنا الزرائب؟

- سيكون بإمكاننا إرضاع العجول والحوليات على مدار السنة - أجاب البيطري متأملاً - في الربيع الفائت ولد عندنا ألفان منها، ومن الآن فصاعداً سنخصب الأبقار طول العام ونحصل على ما لا يقل عن ثلاثة آلاف وليد، أي بزيادة ألف رأس من القطيع الموجود عندنا حالياً. . .

سجّل فيسوكوفسكي حساباته على الورق، وقدّر كمية اللحوم التي توفّرها الأبقار الإضافية والحد الأدنى من السمنة التي ستكتسبها الماشية بفضل التدفئة وذكر الرقم التالي: ثلاثمئة طن من صافي اللحوم الحية، إضافة إلى الزيادة الضخمة في اللبن والزبدة بفضل تحسين الظروف المعيشية للأبقار.

- حمولة عشرين من عربات القطار تقريباً - قالت بوستالويفا فرحة - سنحقق هذه النتيجة يا رفيق فيرمو. وأنت، يا جدتي، ستكونين رئيسة لفرقة عمال البناء. . . شدّي حيلك،

يا عزيزتي، واعملي بطريقة أيام زمان، عندما كان العمالقة يعملون، يقال إن. . .

- تمهلي، يا بنية. - ردّت فيدراتوفنا بزعل. - كان أولئك العمالقة أقوياء بدنياً، ولكنْ حتى فرخ الدجاج أذكى منهم. أقول تمهلوا. . . إذا كان الجو ساكناً والصقيع ثلاثين درجة تحت الصفر على محرار ريمور وسبعة وثلاثين على محرار سيليوس فماذا ستفعلون؟

تأهّب فيرمو للجواب قبل أن تنهي فيدراتوفنا سؤالها، فقال:

- سنعدّ، يا جدتي، احتياطياً من روث الأبقار. نطلب من كمال أن يجهز مكبسة خشبية لصنع قوالب الروث والسرقين. . .

- طلبتُ من هذا الأحمق مراراً أن يفعل ذلك. - قالت العجوز. - السرقين الثمين يغطي المراعي كلها في الشتاء، والماشية ترتجف من البرد. . .

- منعني أومريشيف الانتهازي. - ردّ كمال مبرراً تقصيره. - أبلغته عدة مرات أن الوقت حان لإعداد مدلفنة خشبية، لعلمي بأن أبدان الأبقار تحتوي على وقود، فضلاً عن الحليب واللحوم. وقلت له: أعطني نجارين اثنين وبرّاداً يساعدونني وسأصنع لك من روث الأبقار وقوداً كفحم الدونباس، وأعدّ لك من كرش البقرة تدفئة عمومية. . .

- ومن يحرك مكبسة القوالب يا ترى؟ - سأل فيرمو.

- بغلان. - أجاب كمال.

- كلا. - اعترض المهندس. - الريح وليس البغال. رفقاً بالحيوانات. إعتمدوا على الجمادات.

- أنا أحبك، يا مهندس فيرمو! - هتف البيطري فيسوكوفسكي.

- الريح أفضل. - وافقه كمال. - يمكننا أن نشغل المكبسة عندما لا نحتاج إلى استخدام طاحونة الهواء للتدفئة.

بدت فيدراتوفنا راضية على المشروع، ولكن ليس بالتمام والكمال. فقد طلبت من المهندس فيرمو أن يصوغه ويعلله من ناحية الجدوى الاقتصادية، بينما تتولى هي فحصه من جميع النواحي الأخرى. ذلك لأنها حذرة ومقترة وحريصة على الاشتراكية لدرجة جعلتها تطالب بفرض رقابة مشددة حتى على أعز الأصدقاء. فما أكثر ما يهدر من أموال في العالم السوفيتي من فرط النشوة والأفراح.

وافق فيرمو على صياغة حيثيات المشروع من الناحية الاقتصادية، فيما مضت فيدراتوفنا لتتابع شؤون استثمارة اللحوم السوفيتية. منذ ستة شهور لم تعد العجوز تعرف طعم النوم، ولا تغفو إلا مع طلوع الفجر. وهي تبرر الأرق بكبر السن، وتُقنع نفسها بأنها شبعت من النوم في عهد الإمبريالية.

قبيل المساء ركبت العجوز حنطور السوفخوز لتتفقد كل المراتع والمروج والسهوب، وكل القطعان التي تكتنز اللحم في

أبدانها وتتسمّن هناك. حل الليل وكان حنطورها لا يزال يجعجع في سكون الفضاء. زمجرة الحنطور تثير الرعب والهلع في نفوس الرعاة الكسالى، ولا أحد يستطيع أن يخفي شيئاً عن أنظار فيدراتوفنا اليقظة الساهرة التي ازدادت حكمة تتناسب طرداً مع ازدياد دهاء العدو الطبقي. حتى أفضل الحالبات انتفضن مذعورات عندما بلغهن نبأ تعيين العجوز فيدراتوفنا معاونة للمديرة. كانت المرحومة آينا أكثرهن كدحاً ونشاطاً، تحلب في اليوم الواحد مئة وتسعين لتراً من اللبن، فيما المعدل المطلوب مئة وخمسة وعشرون.

ذات مرة لازمت العجوز إحدى الزرائب في السهب ثلاثة أيام بلياليها، وحلبت سبعمئة لتر من اللبن.

- يا بنات الكلب، يا فاسدات! - قالت فيدراتوفنا آنذاك لاثنتين من الحالبات الكسولات - يعجبكن أن يمسد الآخرون ضروعكن، ولا ترغبن في لمس ضروع الأبقار...

فيدراتوفنا تتذكر عن ظهر قلب كل الأبقار المتميزة في قطيع السوفخوز، كما تعرف ثيران القطيع ثوراً ثوراً. وعندما يمر حنطورها بأبقار تجترّ ما تناولت من كلأ تترجل دوماً وتتفقد تلك الأبقار بعين الحرص واليقظة، وخصوصاً الثيران التي تحظى بعناية مميزة من جانبها. فهي تتلمسها وتبص حتى في جوانبها التحتانية لتتأكد من سلامة أعضاء التناسل ومنابع الحياة.

ها هو حنطورها يصرّ ويهدر مبتعداً، ويغيب عن الأنظار

بسرعة متزايدة. فقد نغزت العجوز الحوذي وانهالت عليه بوابل من فاحش كلامها المعتاد.

في تلك الليلة، حينما ارتفع القمر في السماء، كفَّت الماشية عن الاجترار وربضت في الوهاد والمنخفضات مرتوية من مياه الآبار. أما الأعشاب التي لم تجهز عليها فقد مالت وانحنت إلى تحت متعبة من العيش في الشمس ومن ضجر القيظ الكالح وغياب الأمطار. في تلك الأثناء امتطى فيرمو وبوستالويفا حصانيهما وأسرعا في الفضاء المكشوف على سطح الأرض تلفحهما هبّات من الهواء الدافئ. . .

انتاب الذهول فيرمو حين اختفت عن الأنظار كل المرئيات وكل الأحياء، وانسكب ضوء القمر الضبابي الحزين يغوي الذهن بالانسياق وراء برودة اللانهاية الوادعة وكأن بؤس الأرض اختفى من تحت القدمين.

نيكولاي فيرمو لا يجيد العيش بدون مشاعر وأفكار. فهو منفعل متأثر طول الوقت، مشغول البال بمختلف المخططات المستقبلية، ومثقل بعواطف غامضة فوارة. التفت إلى بوستالويفا، ثم قفز فجأة إلى ظهر حصانها تاركاً حصانه طليقاً لوحده. احتضنها واحتواها من الخلف، وقبّل شعرها الكث، وفكر في تلك اللحظة أن الحب ما هو إلا اختراع مثل العجلة، وأن الإنسان، أو أي كائن حي آخر، يصرف وقتاً طويلا ليتعود على الحب إلى أن يدرك ضرورته.

لم تمانع بوستالويفا. إلا أنها بكت. وتوقف الحصانان يتطلعان في بني آدم.

ثم ترك فيرمو المرأة ومضى على الأرض راجلاً، فيما تبعته هي راكبة.

- لماذا قبّلتني في رأسي؟ - سألته بعد قليل - لم أغسل شعري منذ فترة... - وأضافت: لا بدّ أن أغتسل، فأنا أنوي السفر إلى المدينة قريباً لأدبر مواد البناء.

- وهل يعطون مواد البناء للمطهرين فقط؟ - سألها فيرمو.

- نعم...- تمتمت المرأة وأضافت: كنت دوماً أسعى بنفسي لاستحصال كل الحاجيات المطلوبة حتى وأنا أعمل في المستودع الرئيسي. أرجوك أن تعدّ مع فيسوكوفسكي بيانات مدرسة السوفخوز ومواصفاتها. فلا بدّ لنا أن نعلّم العمال التكنيك وعلم الحيوان. عمال سوفخوزنا لا يجيدون حفر الآبار ولا يعرفون كيف يدارون الماشية...

إلا أن أفكار فيرمو حلّقت إلى أبعد: الآبار شيء عتيق ظهر منذ أن ظهرت الأبقار كفصيلة من فصائل الحيوان. فهل يعقل أنه جاء شخصياً إلى السوفخوز لكي ينبش الأرض ويحفر الآبار؟!

عند منتصف الليل بلغ المهندس والمديرة أبعد مرعى في السوفخوز، وهو أوفر المراعي عشباً وأقلّها ماءً. وراء ذلك المرعى تنبسط، من جهة الشرق، صحراء متوالية قفراء لا يعيش أحد في قيظها الرتيب.

قطيع من ثلاثمئة بقرة عجفاء يقضي الليل في موضع محدب مكشوف، لا أثر فيه للوهاد أو لأي محتمىً آخر في هدوء تضاريس الأرض. ربض القطيع حول بئر متواضعة، وغفا ثور في المشرب الخشبي الكبير، وهو يبعث شخيراً عالياً جنب الأبقار المستكينة.

الحَلفاء المتباعدة تنتشر في هذا السهب، وفيه أيضاً كثير من الشيح والأعشاب البائسة الأخرى التي لا تصلح للعلف. رفع فيرمو دلو البئر ليفحص ما فيه، فوجد قليلاً من الماء العكر، وما تبقّى ليس إلا ترسبات مطمورة من تربة الدهر الجيولوجي الرابع.

استيقظ الثور على صوت الدلو، وشرب ماءه ملتهماً الترسبات، فيما اكتفت الأبقار القريبة منه بأن لعقت أفواهها العطشى متحلّية بالصبر والقناعة.

- ما أسوأ الحال في هذه البقعة - قالت بوستالويفا متنهّدة متألمة - انظر إلى التربة، إنها مشققة كالجرح الناشف. . .

كان فيرمو قد فهم الموقف رأساً. فدماغه يستجيب لكل الظواهر جذرياً وبلمح البصر.

- هنا بالذات سنستخرج الماء الصافي ونوصله إلى السطح. سنملأ بحيرة كبيرة مترعة بالمياه الدفينة منذ القِدم. فالمياه متواجدة هنا على عمق كبير في تابوت من بلور.

ألقت بوستالويفا على المهندس نظرة واثقة. فهي في أمسّ

الحاجة إلى تسمين البقرات العجاف في هذا القطيع البعيد. وإلى ذلك تطالب المؤسسة بزيادة قطعان «أحواش الوالدين» بألفي رأس، في حين أن جميع المراتع والمروج، حتى الرديئة منها، مكتظة بالأبقار. وليس بعدها سوى الصحارى الموات التي لا ينمو فيها الكلأ إلا بالإرواء. ثم إن المراعي المستثمرة حالياً بحاجة أيضاً إلى المزيد من المياه. فلو توفّرت لازداد العلف ثلاثة أمثال، ولما عانت الماشية من العطش، ولاكتست الأراضي شبه القاحلة بالنبات الحي الندي. وحتى لو وفّرت قولبة الروث واستخدام الريح لأغراض التدفئة ثلاثمئة طن من اللحوم وعشرين ألف لتر من اللبن، فمن أين تحصّل بوستالويفا سبعمئة طن أخرى لتنفيذ خطة اللحوم؟

- يا رفيقة بوستالويفا - قال فيرمو - تعالي نغطي السهب كله، وآسيا الوسطى كلها، ببحيرات المياه العذرية الصافية. سننقي الجو ونربّي ملايين الأبقار على ضفاف بحر الصِّبا. هذه اللوحة واضحة تماماً في ذهني.

- هيا، ابدأ، يا فيرمو، وسأحبك. - أجابته بوستالويفا.

كانا لا يزالان جنب البئر، والثور يشخر قربهما. تقدَّم نحوهما راع من الأجراء تبدو عليه أمارات الألم لضياع بقرتين من قطيعه. جاء ليتأكد هل أن القادمَين من الغرباء الذين يأتون ليستبدلوا الأبقار السمينة بأبقارهم العجاف أو يحلبوا اللبن الذي امتنع هو شخصياً عن شربه حتى يزداد المردود؟

طفق فيرمو يحدّث الراعي بجدّ وحماس عن المياه

المطمورة منذ الأزل في ظلام الأرض. عندما نشأت الكرة الأرضية، والآن أيضاً حيث يتواصل نشؤها، حوصرت كميات كبيرة من المياه بين الصخور البلورية، وظلت تلك المياه طول الوقت هناك في حصارها الهادئ. كما انبجست مياه وفيرة من مادة الأرض عندما تعرّضت للتبدلات والتفاعلات الكيمياوية. وتجمّعت تلك المياه هي الأخرى في قبور صخرية بشكل عذري خالص لم تمسّه يد. . .

- يعني مثل العانس البائرة المحبوسة في كوخها - أوضح الراعي للمهندس هذه المرة - فما إن تطلق سراحها حتى تلد الأولاد رأساً، الواحد تلو الآخر.

لم يصغ فيرمو إلى ما قاله الراعي. فقد استرعت انتباهه تباشير الفجر التي ترتعش عند المشرق. وأخذ يداري، في ظلمة وعيه، فكرة وليدة، لا تزال تجهل نفسها ولم تتجذر فيها جذوة الحياة، لكنها مرتبطة بفجر اليوم الجديد. ثم استند بمرفقه إلى بدن الثور الغافي وراح يداري فكرة أخرى: أما حان الوقت للتخلي عن الأشكال العتيقة للماشية والانتقال إلى تهجين أبقار اشتراكية عملاقة بحجم الديناصور لنحلب من البقرة الواحدة صهريجاً من اللبن كل مرة؟

في طريق العودة غرق فيرمو في حالة غامضة من حالات ذهنه الذي لا يعرف الكلل، ذهنه الذي يتصوره بشكل حجرة واطئة تعج بدخان التبغ وبالصراع الديالكتيكي بين جوهر التكنيك وجوهر الطبيعة. وكلاهما منهكان من كثرة ما تصارعا

في الزمن. ليس هناك مادة أو خاصية طبيعية إلا ورسم نيكولاي فيرمو لها مستقبلها وقرر مصيرها الأبدي. ولذا صار يرى في ناديجدا بوستالويفا كائناً يغمره نور الاشتراكية الباهر، وضوء النهار الصيفي الساحر الغارق في زرقة غاباته والذي يعجّ بصخب شعوري منبعث من ولع لا يزال في طيات المجهول.

عندما يتطلع فيرمو في محيّا بوستالويفا وملامحها، وفي وجوه الآخرين الذين يتملّصون الآن من عذاب التاريخ الطويل الموات، يشعر بألم يحزّ في القلب، فيعتبر وجودهم، على علّاته ونواقصه، سعادة ما بعدها سعادة.

* * *

عاد المهندس والمديرة إلى «أحواش الوالدين» بعد انبلاج الفجر، وصادفا في طريقهما فريق عمال الآبار. فطلبت بوستالويفا من رئيسه أن يأتي إلى فيرمو في المساء لبحث مسألة استخراج المياه من البحار الجوفية العذرية.

لمس رئيس الفريق الشاب ميليشين، من دون قصد، ساق مديرة السوفخوز الجالسة على ظهر الحصان وقال:

- يا رفيقة، في العام الماضي اتخذ مؤتمر الناحية قراراً بشأن الحفر العميق. وقد ألقيت كلمة في المؤتمر نقلتها الإذاعة إلى كل الكولخوزات والسوفخوزات. وتمكنت أن أثبت واقع شحة المياه عندنا وعدم كفايتها لسد احتياجات الاشتراكية.

ليس عندنا سوى رطوبة التربة والعرق المتصبب عليها. . . طيب سآتي في المساء.

خلعت بوستالويفا قبعة الشاب وداعبت شعره.

ثم مضت مع المهندس في الطريق الأقرب غير المطروق تقريباً. وسرعان ما شاهدا منظراً غريباً للأرض وكأنهما في حلم عميق. الفضاء يستقر أمامهما ليس منبسطاً عريضاً، بل مرتفعاً سميكاً. وفي كل الأنحاء نتوءات كبيرة كالأضراس جعلت العالم خانقاً ضيّقاً رغم روعة النهار والنسيم العليل حواليه.

فكر فيرمو مهموماً وهو يتطلع إلى سمك التضاريس: «ينبغي أن نستفيد من ثقل كوكب الأرض. يمكن تدفئة أكواخ الرعاة على طاقة تساقط الصخور، ويمكن طهي الطعام على طاقة الهبوط الأزلي للصخور الترسبية. . .»

على تلك الأرض السميكة وقف رجل ضئيل الحجم، بلحية كثة، يطالع كتاباً في ضوء الشمس الغاربة. ظن فيرمو الساذج، الطيب القلب، أن هذا الرجل مغرم بالنظريات، وربما يفكر في نشأة الكون البروليتاري ويراقب الشمس مباشرة في الوقت ذاته. إلا أن بوستالويفا بادرته ضاحكة:

- هذا أندريان أومريشيف، وهو يفكر فيما كان قائماً هنا في عهد إيفان الرهيب ويتساءل: ألم يكن ذلك أفضل؟!

فعلاً. كان أومريشيف غارقاً في تأمل عميق وهو يمسك بكتابه البالي. ويتطلع باستهانة إلى الطبيعة الزاهية ويفكر في ما

لا يعرفه الكثيرون. ضمر وجهه ونحل قليلاً، لكن الشعر صار يغطيه كثيفاً. وفي نظرة عينيه تبحّر مستديم في المسائل الجذرية للمجتمع البشري ومجريات الكون بأسره.

لم يستفسر من الراكبيَن عن أحوالهما، واكتفى بأن ردّ التحية على فيرمو وأخذ يقدم التوضيحات قائلاً إن كولخوزه ليس بعيداً عن هذا المكان، ومن هنا يُرى حتى دخان فطور الصباح، وأنه يعمل في الكولخوز بأفضل صورة، حتى تمكن تماماً من تصفية أدران تمييع المسؤولية، وهو الآن يفكر في تحسين الجرد والحسابات... واتضح أن أومريشيف أُعجب فجأة بدقة ميقات شروق الشمس الذي جاء في حينه متجاوباً مع اليوم التقويمي المحسوب، وأحب الأرقام والجداول والخطوط البيانية والمواصفات والتدقيقات والاستمارات. وها هو يقرأ في مطلع الفجر «حساب التفاضل والتكامل» الصادر في عام 1844 من تأليف البارون كورف، رئيس جمعية ترويج المدافئ الهولندية. كما اهتم أومريشيف في الوقت ذاته بالجوهر المبدئي لمادة العالم، وهو ينوي القيام بخطوات فلسفية في هذا الاتجاه.

ألقت بوستالويفا على أومريشيف نظرة ضجرة حاقدة، وأرخت العنان لحصانها. هذه المرأة لا تعتقد بغباوة الأشخاص وبلاهتهم، إنها واثقة من دناءتهم.

التفت المهندس فيرمو إلى أومريشيف من بعيد. كان لا يزال واقفاً على الأرض السميكة، إنساناً ضاراً ومجنوناً في

مفهوم التاريخ. فاقترح المهندس على المديرة بوستالويفا جمع كل الغامضين والذين تحت الاختبار في موضع واحد، وتشييد مؤسسة لإنتاج البلاهة التاريخية بالجملة، أو في نطاق شبه مصنعي على الأقل، حتى تتهيأ الفرصة مسبقاً لإقامة أنصاب وتماثيل لآخر أفراد الطبقات البائدة كي تراها الأجيال القادمة وتتعظ. أومريشيف يكاد يكون من هؤلاء. فهو أيضاً أراد أن يدسّ اسمه في قائمة صناع التاريخ بوصفه شخصية معنوية مثقفة وعاقلة!

وأجابت بوستالويفا أن الأنصاب والتماثيل التهذيبية ينبغي أن تشيد بعد هلاك الكائنات المعادية. أما الآن فيجب العمل من أجل تصفيتها جسدياً ودون رجعة. مال فيرمو من على سرج حصانه ليتفرس جيداً في الحقد الطبقي المنطبع على وجه بوستالويفا، إلا أنه استشف السعادة منطبعة على محيّاها. كانت العينان الرماديتان مفتحتين كالفجر، كفضاء الصباح الذي تتململ فيه طاقة الشمس الكهرمغناطيسية.

تحسس فيرمو هذه القوة المنبعثة من بوستالويفا وعزم في الحال، دون تروٍّ ولا تفكير، على أن يضع نور الإنسان في خدمة الاقتصاد الوطني.

تذكّر ماكسويل ونظريته في جاذبية النور الكهرمغناطيسية. تقول هذه النظرية إن لألاء الشمس والقمر والنجوم، وحتى غسق الليل، إنما هو من فعل مجال كهرمغناطيسي طول موجته قصير للغاية وعدد ذبذباته في الثانية الواحدة كبير لحد تعجز

أحاسيس الإنسان عن تصوره. ثم تذكّر فيرمو تباشير فجر هذا اليوم، عندما توترت إرهاصات النور في المشرق وضعفت أمام مقاومة اللانهاية المشبعة بالظلام. في تلك اللحظة، وكان فيرمو مستنداً بمرفقه إلى الثور الغافي، ضيع في ظلمة بدنه بوادر إحساسه العقلاني بالسماء المنيرة.

والآن أيضاً لا يعرف المهندس فيرمو ماذا يفعل بنور السماء. فقال:

- يا رفيقة بوستالويفا، أعطيني يدك...

مدّت له المديرة يدها المتورّمة من لفح الريح وكدح العمل، فسار الاثنان بعض الوقت بيدين متشابكتين. وكان فيرمو يضغط على راحة المرأة ليحفز تأملاته، وليس عواطفه، فقد برد بدنه وتبدّدت حرارته بالكامل من شدة التأمل الباطني.

وسرعان ما لاح موقع «أحواش الوالدين» عاجزاً من بعيد، يثير الشفقة، وخصوصاً إذا ما قورن بالفضاء الكوني المشدود الأوتار بفعل طاقة الشمس الكهرمغناطيسية وصمتها الرهيب.

* * *

حدّدت بوستالويفا موعد الاجتماع الدوري في آخر النهار. وسارع لحضوره رئيس فريق عمال الآبار ميليشين والبيطري فيسوكوفسكي والمهندس فيرمو والعجوز فيدراتوفنا والحداد كمال ومسؤولو المراعي الخمسة (في السوفخوز خمسة

قطاعات) وكبير الرعاة كليمنت الذي اختير ليترأس الاجتماع كونه يتحلى بحسن التدبير بالفطرة. تضمَّن جدول الأعمال مسائل إعادة تنظيم سوفخوز اللحوم بأسره حتى ينتج من لحوم البقر ليس ألف طن كما جاء في الخطة، بل ألفين. وبعد ذلك يتعيّن التفكير في المراعي لتوفير مستلزمات رعي الماشية الإضافية، وتعدادها ألفا رأس من الأبقار وأربعون ثوراً. وقد تقرر اقتيادها مشياً على الحوافر، كما جاء في الكتاب الرسمي الذي تسلَّمته إدارة السوفخوز، من الناحية المجاورة على بعد مئة وخمسين كيلومتراً من هنا.

مع حلول الغسق وصلت بوستالويفا من السهب إلى مكان الاجتماع بعد أن فرغت من أشغال النهار.

قال كليمنت للحاضرين، وهو يتطلع إلى الشمس بعينين تعوَّدتا عليها، إن الوقت حان للتفكير في الاشتراكية بحسن تدبير لتسير كل الأمور في السهوب بحرص وتقتير:

- في نفسي، هنا بين الضلوع، شحنة بلشفية حالما أطلقها على عملي أخطئ الهدف وأجدها قليلة، غير كافية... أحاول أن أفعل الكثير ولا يحصل الا القليل. يا للشيطان! أطعم الماشية بأفضل شكل، أمضغ العشب بنفسي قبل أن أقدمه إليها، بينما تؤكد التقارير أن كميات اللبن قليلة وأن لحم البقر لا يزداد... أخذنا من الكولخوز المجاور أربعين عاملاً من كلا الجنسين، واتفقنا على أن يكون اثنان منهم معاونَيْن لي. وهما رجلان فطينان حسب الظاهر. فماذا حصل؟ يبذلان

قصارى جهدهما، وقد رأيت بنفسي العرق يتصبّب منهما، بينما الأمور تسير في مرعاي من سيئ إلى أسوأ. . . وإذا غفلت لحظة أرى الماشية تقف جائعة بين الأعشاب ولا تأكل منها، لأنها عطشى. وفي تلك الأثناء يسرع الرجلان، وهما يمتطيان جاموستين، ولا أحد يعلم إلى أين يقصدان. أصيح بهما فيعودان، وأطلب منهما أن يفعلا كذا وكذا فلا يقصران. وعندما أتفقّد الحاصل لا أجد نتيجة. ما سبب هذه الصفاقة الهادئة الوادعة؟ الشخص المنفعل الغاضب يمكن أن تتعامل معه بشكل ما، أما الشخص الوديع فلا ملمس له. إنه عدم. لا مجال حتى للتشبّث بخناقه وتسديد الضربة إليه. . .

- الصراع الطبقي قائم بيننا - قالت بوستالويفا بصوت خافت.

- طبعاً، وإلا كيف نفسر هذه الظاهرة؟ - وافقها كليمنت رأساً.

- من أين جاء معاوناك، أيها الأحمق الضعيف الإرادة؟ - سألته فيدراتوفنا - من أي كولخوز بعثوهما إليك؟

- من الكولخوز الذي يقرأ فيه مديرنا السابق الكتب. وهو يداري الفلاحين ويطلب منهم ألا يحزنوا ولا يكتئبوا، لأن كل شيء في الدنيا يعود، كما يقول، إلى الإلكترون، تلك المادة التي لا تفنى حتى وإن ثارت عليها دكتاتورية البروليتريا كلها. فأخذ الريفيون الأغنياء يتساءلون طول الوقت عن الإلكترون. كل واحد منهم يريد أن يتحول إلى إلكترون ولا يعرف كيف. . .

- فيرمو، أرجوك. . . - قالت بوستالويفا - اذهب مع فيدراتوفنا إلى أومريشيف في كولخوزه وأوضح له ما هو الإلكترون. أما الآن فلنناقش مسألة تدفئة زرائب الأبقار في الشتاء.

دخل الاجتماع في مناقشة المسألة، فيما سلّم فيسوكوفسكي تقريراً إلى المديرة عن الأحوال اليومية للسوفخوز ورعاية الماشية وخض الزبدة من اللبن. وتضمَّن التقرير إشارة إلى ضياع ثماني بقرات وهلاك اثني عشر عجلاً. قرأت بوستالويفا التقرير بصبر وأناة، وهي عارفة بوجوب الاحتفاظ بالحقد في فؤادها حتى تكفيها بقاياه لإنهاء وجود العدو الطبقي.

اتخذ الاجتماع قراراً بتشييد مبنى التدفئة بالرياح، وحفر بئر في الأرض إلى أعمق أعماقها وصولاً إلى البحار التحتانية العذرية السحرية، وإطلاق المياه المضغوطة هناك إلى سطح الأرض الوضاء، ثم يصار إلى سد فوهة البئر، فتبقى وسط السهب مياه بحر عذب جديد يروي غليل الأبقار والأعشاب.

ونظراً لعمق المياه العذرية ومجاهل بحر الصِّبا اقترح فيرمو حقن الأرض بتيار كهربائي يفتّت الطبقات المتبلورة وينغرز فيها كما السكين في العجين!

همَّت فيدراتوفنا بالاعتراض على هذا الإجراء المكلف، فهي شديدة الحرص على الأموال الاشتراكية. إلا أن فيرمو أقنعها بأن الحفر العميق باللهب الكهربائي حدث ذو أهمية تاريخية عالمية دون ريب. فوافقت العجوز وانطبعت على فمها

الأفلج ابتسامة عريضة، فهي لا تقوى على مقاومة الشهرة والأمجاد. ثم أخذ الاجتماع يفكر في موضع إيواء ألفي رأس جديدة من الأبقار. وكاد فيرمو يبتدع وسيلة مناسبة لهذا الغرض، فقد اعتاد أن يبتدع وسيلة ما من كل بد، لأن ضغط الحياة الشخصية يثقل عليه ويحطمه إنْ لم يبتدع شيئاً. إلا أن كمال اقترح، بدافع من ذهنه المتقد، والمتفجر فطنة بالقدر نفسه، أن ينشروا ألواحاً حجرية في مقلع أحجار الكلس المجاور ويشيدوا زرائب للماشية من تلك الألواح. فعقّب فيرمو على اقتراح كمال قائلاً:

- ينبغي نشر الأحجار باللهب الكهربائي وليس بمناشير الحديد. فإن اثنين من العمال لا أكثر بوسعهما، والحال هذه، أن يعدّا ويرصفا ألواحاً لزرائب تتسع لألف رأس من الماشية.

- أحسنتَ يا هذا! - قال كمال فرحاً وأضاف من عنده اقتراحاً أفضل: - وسوف نربط فيما بين تلك الألواح باللحام الكهربائي، بالفولطية نفسها التي سننشر بها الأحجار في المقالع.

مسح فيرمو عينيه، فقد لمعت فيهما دموع الإعجاب، ونهض مسروراً لسرور الجميع.

- نسيتم روث الأبقار وقوالب السرقين - ذكّرتهم بوستالويفا، وكانت عيناها قد ابيضتا من فرط التعب. فتدلى رأسها على يديها وغطت في غيبوبة النوم.

استيقظت في ساعة متأخرة من الليل، وهي في غرفتها هذه المرة. وأمرت بشد الحصان إلى العربة كي تذهب رأساً إلى محطة القطار. ورأت أن تواصل النوم في الطريق إلى المحطة عبر السهوب، فتأخذ قسطاً إضافياً من الراحة.

صمّمت بوستالويفا على استحصال مواد إنشائية وتجهيزات من مركز الإقليم على جناح السرعة، لتبني، قبل حلول الشتاء، زرائب جديدة للأبقار، ومحركاً هوائياً للتدفئة مزوداً بمولد كهربائي، ومكبساً لصنع قوالب السرقين. أما بخصوص البحار التحتانية ومياهها العذرية فقد قررت أن تلتحق بمعهد المدينة بالمراسلة لتدرس الهندسة وتتأكد بنفسها من مشروع فيرمو، فيما كانت تستحي من الشروع بفحصه الآن لقلّة معرفتها وعدم فهمها للتركيبة التحتية لباطن الكرة الأرضية ولأنها لم ترَ في حياتها اللهب الكهربائي مطلقاً. وإلى ذلك كان ثمة مخرج آخر، لكنه صعب عسير. كان يمكن تنفيذ الخطة الإنتاجية أكثر من المطلوب بمرتين أو ثلاث، والحصول على مكافأة مالية وإقناع جميع عمال السوفخوز بصرف المكافأة لاقتناء آلة حفر التربة باللهب الكهربائي. فما الذي حال دون ذلك المشروع؟

صوت الهارمونيكا اللونية يصدح في السوفخوز. وقد اخترع فيرمو السلّم اللوني لأنه كان ينسى ألحانه كل يوم حالما يفرغ من عزفها.

ظلام مجهول يلفع موقع السوفخوز ويكتنف القطعان البعيدة التي ليس لها من يحميها. والى أبعد، فيما وراء تلك القطعان،

تنبسط كولخوزات وقرى وبلدات كانت مدناً في زمن ما تسكنها آلاف من الناس بما يلازمهم من تودّد وكراهية. الأبقار السوفيتية جاثمة الآن جنب المشارب، والثيران تنفث شخيرها المعتاد، فيما راح الرعاة يطبخون ما يأكلونه في الليل كيلا يداهمهم ملل الجوع في المنام... واحد فقط من كل عشرة رعاة كان من الشيوعيين الذين يحاولون أن يناموا في النهار، وبالتناوب، لكي يسيروا ليلاً بعيون مفتوحة على الظلام. إذا كانت ثماني أبقار تُفتقَد كل ليلة فماذا يبقى من اللحوم التي يمكن إرسالها إلى الدونباس وستالينغراد؟

طوت بوستالويفا فستانين احتياطيين ووضعتهما مع البياضات في الحقيبة، ودسّت فيها قوائم مواد البناء والتجهيزات المطلوبة، وتطلعت في المرآة، ثم جلست على السرير تتأمل، فغرقت في وحدتها وأفكارها: «ليس لدي أقرباء. كانت عندي شقيقة واحدة، لكننا نسينا أن نتبادل الرسائل! لا تنسي أن تستفسري في معهد البيطرة عن كيفية استخلاص المني من البول للتلقيح الاصطناعي... فيسوكوفسكي لم يطلعني على ذلك... وأنت يا فيرمو، أريد أن أتزوجك في ظل الاشتراكية. ولربما أغيّر رأيي، من يدري؟»

كان فيرمو، ساعتئذٍ، يعزف ما يعتبره سوناتة عن مستقبل العالم: أصوات موسيقية ابتكرها بنفسه تمثل عمالقة اللبن والسمن وهي تسرح على الأرض المعشوشبة. إنها كائنات حية لكن أجزاءً من أبدانها معدنية الغرض منها وقاية تلك

المخلوقات من الأمراض وتأمين المردود المتواصل. وعلى سبيل المثال: الفكّان فولاذيان، والأمعاء محصّنة بالكامل ضد الأمراض الناجمة عن تفسّخ الغائط. أما الغدد اللبنية فهي محسّنة ومجوّدة بالكهرمغناطيسية. حالبات الأبقار والعمال في ساعات الفراغ يستمعون إلى موسيقى فيرمو وتوضيحاته بِشأن أهمية أدائها، ولا يصدّقون بأن الأمر كذلك حقاً إلا بعد الاستفاضة في تلك التوضيحات.

أعدّوا العربة المكشوفة التي طلبتها بوستالويفا. خرجت في معطف السفر الخفيف، وشعرها الفاحم يلمع في الضوء المتسرب من النافذة، وأحسّت برجفة خوف وإشفاق لمغادرة السوفخوز، كونها تتركه وحيداً في العتمة.

نادت في طلب فيدراتوفنا وأمرتها أن تمضي غداً برفقة فيرمو إلى كولخوز أومريشيف وتبحث عن كل النواقص وترفع إلى اللجنة الحزبية في الناحية، إذا اقتضى الأمر، مسألة تصفية بقايا أثرياء الريف على الفور، وكذلك مسألة إبعاد جميع العناصر البرجوازية المتشددة من منطقة سوفخوز اللحوم والألبان، وإلا سيتعذر تسيير اقتصاديات السوفخوز.

- سأعرّج بنفسي على لجنة الناحية - قالت بوستالويفا - أما أنتما فحبذا لو ذهبتما للتأكد من إلكترون أومريشيف. أعتقد أن هذا الإلكترون شعار سياسي جديد من شعاراته.

- سأعالج موضوع أومريشيف لوحدي - أجابت فيدراتوفنا

- أنا أعرف ما هو الإلكترون، فقد درست الفيزياء. إنه جُزيء. أما الشعارات فأنا أشم رائحتها حتى وإن لم يتفوّه بها الانتهازي. ارحلي يا بنتي، ولا تنسي المسدس.

اكتأب فيرمو. ذلك لأن الهيولى الديالكتيكية المتصارعة في داخل وعيه استقرت من التعب في قاع دماغه. فقال مخاطباً بوستالويفا:

- عندما جئت معك في العربة صباحاً رأيت في السماء طاقة كهرمغناطيسية! ينبغي لنا أن نصنع محوّلاً بصرياً يتولى تحويل وميض الشمس والقمر والنجوم إلى تيار كهربائي. وسيتغذى من الفضاء اللانهائي، وسـ...

- ألا تكفّ عن التفكير ولو من أجل إنسان واحد؟ - اعترضت عليه فيدراتوفنا بغيظ - البنت على سفر وأنت تهذر وتحشو دماغها. إنها مشغولة البال بهمومنا حتى بدونك. أم تظن أننا غير مطّلعين على الفيزياء، ولا أحد غيرك ذكي بيننا؟ فهل أنت تعيش في الرأسمالية التي لا يفكر في ظلها إلا النخبة؟

- إلى اللقاء يا فيرمو - صافحته بوستالويفا وأضافت: - واصلوا أعمال الحفر، وسأجلب أنا التجهيزات...

هذا ما قالته بوستالويفا قبل أن يكتنفها الظلام في الطريق إلى مركز الإقليم البعيد.

* * *

ذات صباح صيفي موشك على الانتهاء توقفت عربة ناديجدا بوستالويفا، مديرة سوفخوز اللحوم والألبان «أحواش الوالدين»، أمام مبنى اللجنة الحزبية في مركز الإقليم. مسؤولون حزبيون من مختلف الدرجات تمدّدوا مستلقين حول المبنى في باكورة أشعة الشمس. الكثيرون منهم يغطون في نوم عميق بعيون مخسوفة كما في جماجم الموتى. فيما راح البعض الآخر يتمتمون ويتطلعون إلى الفضاء العريض الذي غرسوا فيه الكثير من فتوّتهم وطاقاتهم وصار اليومَ يطفو على غاز العادم المنبعث من الجرارات الهدارة وتلمع فيه أخشاب المباني الجديدة وتجوبه جموع غفيرة متوجهة إلى العمل. فقد ملأت الاشتراكية الجماعية خواء الرأسمالية وفراغها الكئيب.

سكرتير لجنة الإقليم نائم في غرفته. رقد على السرير قبل ما لا يزيد عن الساعتين، بعد أن واظب على العمل طول الليل. لم تكن بوستالويفا تريد الانتظار، فدخلت عليه الغرفة. فتح عينيه فوقعت نظرته عليها. عرفها في الحال، لأنه كان يتذكرها طول الوقت، وينتظرها في قرارة نفسه، دون أن يتلمّس بارقة أمل من وراء ذلك الانتظار.

شرحت له بوستالويفا طلبها، فاستمع إليها مستلقياً على السرير دون أن يفهم شيئاً في بادئ الأمر. إنها تعجبه بوصفها شريكة في الصراع الطبقي القاسي، ورفيقة في العمل المتواصل، وكامرأة ليس لديها، مثل السكرتير نفسه، أية لذة أو شهوة شخصية خفية. فأجابها قائلاً:

- نحن نعرف بعض الأمور عن كولخوز أومريشيف. في جلسة مكتب اللجنة قررنا أمس أن نتأكد من أوضاع الكولخوزات الواقعة على مقربة من سوفخوزك لنحرق ما تبقّى من أصول القرويين الأثرياء هناك.

ودّعت بوستالويفا السكرتير وانصرفت. فيما تابعها هو بنظراته من مدخل المبنى، فأسف لرحيلها. كل الأشخاص العزيزين على قلبه غائبون دوماً، منهمكون في أعمال بعيدة، مختفون من باحة الصداقة. وكان عليه أن ينتظر خمس أو عشر سنوات أخرى حتى تحل الشيوعية وتقتحم الآليات ميدان العمل، فيتفرغ الناس للمودة والاستئناس بعضهم ببعض.

لم تجد بوستالويفا مكاناً تأوي إليه في المدينة. الفنادق تغصّ من زمان بالنزلاء المقيمين من المهندسين والعمال المؤهلين الوافدين من لينينغراد وموسكو. وقد وصلت هي إلى المدينة في الفترة التي لم يبق فيها مأوى أو مبيت، لأن عمال البناء قاموا بهدم وتجريف جميع مساكن العوائل البرجوازية ومبانيها. أما المباني الجديدة النيرة فلم تجفّ رطوبتها بعد ولا تزال خالية.

حينئذٍ استقرت بوستالويفا في مبنى الدائرة التي كانت تريد استحصال مواد البناء منها. اللجنة النقابية في الدائرة سمحت لها بالمبيت في غرفة أعمالها ووفرت لها مرآة بوصفها عضواً أنثوياً في النقابة. فتحت بوستالويفا النافذة في الليل وألقت نظرات طويلة مبهورة على الساحات المضاءة التي تضجّ بصخب

بناء المصانع والمساكن والطرقات. في داخل الدائرة ظلام، والأرشيفات تستقر صامتة على رفوف الخزانات وتحجب في طيات صفحاتها مظاهر البيروقراطية والتخريب وهذيان الطبقات الصغيرة الآيلة إلى الزوال، وكذلك البطولات الحية كالكائنات. جابت بوستالويفا أروقة الدائرة المحتبسة الأصوات، ولمست بيديها الإضبارات في الخزانات، وغرقت في تأمل جاد وسط فراغ الجناح الإداري الذي يعشش فيه الملل.

اغتسلت في الحمام الملتصق، بحكم المنطق، بمكتب أحد المسؤولين، وارتدت بياضات نظيفة واستلقت لتنام على طاولة اللجنة النقابية يتناهى إليها، عبر النافذة، ضجيج الأعمال الليلية وأصوات العاملين وقهقهة المقبلين والمقبلات على الزواج وزئير الآليات المتحشرج وصفير وسائط النقل وأناشيد خفارات الجيش الأحمر في استبدال نوباتها. كل هدير حياة البلاشفة اقتحم النافذة آنذاك.

لكن بوستالويفا غفت سعيدة هادئة البال، دون أن تشعر بالجرذان السمينة تروح وتجيء على بدنها فيما تبقّى من الليل بعد منتصفه.

في الصباح مضت الفتاة في طلب الأخشاب والمسامير ومولد الكهرباء والأسلاك وقطع الغيار الجديدة للمكبس الذي ينبغي أن يتولى كبس روث الأبقار في قوالب وألواح مهيأة للاستعمال كوقود.

همهمة العمل الذهني الحثيث تخيّم على القاعة الكبرى في الدائرة. فالمئات من المستخدمين منكبّون على أوراقهم يفكرون في سبل تموين الآلاف من مشاريع البناء، ويناطحون خططها ويناقشون تفاصيلها بلا انقطاع مع المشرفين على ساحات البناء، ويستهلكون الشاي بين الحين والآخر، فيحتسونه كلما سنحت فرصة فيما بين العمل.

في ركن تلك القاعة جلس الموظف التنفيذي المسؤول عن توزيع بيانات المواد الإنشائية. كان لا يزال شاباً، إلا أن الشيب وخط شعره. وكان يحدّق مكتئباً متحيراً في فضاء دائرته الخانق دون أن يرى أية إمكانية لتلبية الضروريات حتى لمشاريع البناء الطليعية والإنشاءات الخصوصية.

بادرته بوستالويفا قائلة:

- أنا بحاجة إلى صندوق مسامير.

ابتسم المسؤول وأبلغها بصيغة الحريص حرص الوالد على ابنته:

- وأنا، يا عزيزتي، بحاجة إلى عشرة آلاف طن من المسامير!.. من أين أنت؟ من أرسلك إليّ؟

جلست بوستالويفا وحدّثت المسؤول، بلهجة رقيقة رقة الأمل، عن كل ما تحتاج إليه مزرعتها الحكومية، سوفخوز «أحواش الوالدين».

في أثناء حديثها جاء إلى المسؤول التنفيذي مراجعون

آخرون ومستخدمون من الدائرة، فاستمعوا جميعاً إلى حديث المرأة ولم تفارقهم الابتسامة من طلباتها التي لم يرد لها ذكر مسبق في خطط الدائرة. إلا أن المسؤول الشاب نفسه لم يبتسم. كان حزيناً. فقال بلهجة مَن تعوَّد على مصائب عمال البناء:

- خصّصنا لناحيتكم كلها نصف صندوق من المسامير. فخذي منه حفنة.

قهقه الجميع متشفّين. فقد جاؤوا يريدون ما هو مخصص لهم في خطة التموين، وكانوا مندفعين ليس بدافع الصدق والإخلاص، بل بوازع من الشطارة والتفنن.

فقالت بوستالويفا حانقة:

- أعطني أوراق خطتك المكتوبة، يا سافل، وسأجد فيها مسامير.

في بادئ الأمر حرر المسؤول بياناً بالإهانة التي تعرَّض لها شخصياً بحضور شهود، ثم مدّ لها يده بالخطة، لأن ذلك من صلب واجبه.

راجعت بوستالويفا مجمل توزيعات المسامير، وشعرت بالحزن والإشفاق على كل مشروع من مشاريع البناء، لأن الجميع تقدموا بطلبات متعطشة ولم يحصلوا إلا على النزر القليل. فلم تستطع أن تقتطع كميةً من مسامير أحد لتجلبها إلى مزرعتها. إلا أنها لاحظت في آخر أوراق الخطة ذكراً لأربعة

أطنان من الأسلاك المخصصة لقسم التغليف من أجل صنع حبال تجريبية منها.

مضت بوستالويفا إلى مدير الدائرة ومعها أوراق الخطة. وكان المدير الذي أفزعته مجاعة المواد الإنشائية جالساً في مكتبه الخانق يحيط به جمع كبير من المراجعين بشأن مختلف الاحتياجات. كانوا يجهدون لإقناعه ويصورون له آفاقاً مذهلة لتدشين مصنع الصلب فيما لو أعطاهم الكمية اللازمة من المسامير. وكانوا يهدّدونه تارة بعقوبات من المرجعيات الأعلى وتارة يسترضونه بسجائر لف مستوردة. كان المدير يحدّق في الهواء عبر نعاس التعب الذي ألمّ به، وكان فرحاً متشفياً في دخيلة نفسه: «لا جدوى من محاولاتكم يا ملاعين، لن أعطيكم شيئاً. تعلّموا الابتكار والاكتفاء الذاتي!»

التفت المدير المسن، وكان عاملاً في حينه، إلى محيّا بوستالويفا الذي لا يشبه وجوه الموظفين والمستخدمين، فدعاها إلى الاقتراب منه وحاول رأساً أن يتفهم مشكلتها. اقترحت عليه أن يعطيها نصف طن من الأسلاك على أن تبعث إلى قسم التغليف بدلاً منها حبالاً تجريبية تصنعها من القش في السوفخوز.

وفي الحال فارق النعاس جفون المدير، فسلط على بوستالويفا نظرة احتوتها من الرأس إلى أخمص القدمين وسأل:

– كم تريدين؟ نصف طن؟ خذي الأطنان الأربعة كلها. أظنك ستصنعين منها ما ينفع الناس... يا غورونوف – نادى

أقرب معاونيه - اشطب الأسلاك من اعتمادات قسم التغليف ورحّلها إلى ملاك «أحواش الوالدين». وارفع قضية قسم التغليف إلى المفتشية العمالية الفلاحية لتحرق شعر العاملين فيه. ينبغي أن نوضح لهؤلاء السفلة أن المعدن قد يكون حارقاً. وأنت يا فيريشاسني - صاح المدير، عبر همهمة دائرته، مخاطباً المسؤول التنفيذي - تعال إليّ بعد الدوام. أعتقد أنني سأفصلك من الوظيفة بسبب الأسلاك...

في ذلك اليوم نفسه أرسلت بوستالويفا ثلاثة أطنان من الأسلاك إلى السوفخوز وتركت الطن الرابع في المستودع. وفيما بعد، عند الغروب جاءت إلى معمل المسامير وطلبت من مديره أن يقص لها مسامير من الأسلاك، فسألها:

- والثمن؟ لسواد عيونك؟

نظرت إليه بعينين عاديتين وقالت:

- نعم.

تطلّع مدير المعمل إلى هذه المرأة وكأنه ينظر إلى الجمهورية الفيدرالية كلها، ولم يحر جواباً. كلما زوّد الجمهورية بكميات متزايدة من المنتوج متجاوزاً الخطة االصناعية المالية بنسبة مئة وخمسين في المئة كانت تقول له غاضبة: قليل. والآن تقف أمامه هذه المرأة المتشددة كالجمهورية التي تفتقر، مثلها، إلى الأرصدة الوفيرة والمزايا البارزة. فابتسم قائلاً:

- أليس من حقي أن آخذ قبلة مقابل المسامير؟!

- طيب. - وافقت بوستالويفا.

شعر المدير، مندهشاً، بوجود بدنه كاملاً، من القدمين حتى الشفتين، كجسم صلب غدت فيه حتى الأحشاء ملموسة محسوسة. وكان قبل ذلك لا يمتلك سوى شعور واحد هو الوعي في أعلى البدن، أما ما يجري في داخل كيانه فلا علم له به ولا إحساس.

- ألن تزعلي؟ - سأل المدير وهو يتابع أرجاء المكتب بتوجّس وحذر. لم تكن تُسمع أية خطى، والهاتف صامت لا يرن، والمروحة الكهربائية ضعيفة الدوي وكأنها صامتة أيضاً.

- لن أزعل - أجابت بوستالويفا - أنا متعودة. . . العام الماضي استحصلت على صفائح التسقيف، واضطررت بالمقابل على عملية إجهاض اصطناعي. لكنني أعتقد أنك لست بمثل هذه الدناءة. . .

أطرق المدير وتدلى رأسه بلا اكتراث فوق أوراق الأعمال اليومية. فاقتربت منه بوستالويفا بنفسها وقبّلته على نحو جعله يمضي، بعد انصرافها، إلى المغسل ليرى في المرآة ما إذا كانت هذه المرأة قد تركت أثراً على وجهه، ذلك لأنه ظل طول الوقت يشعر بوجود شيء ما على شفتيه.

في المساء تسلَّمت بوستالويفا المسامير من المعمل. المدير نفسه جلب لها من المشغل أربعة صناديق على عربة كهربائية

وأخذ منها إيصالاً بالاستلام. أرسلت بوستالويفا المسامير إلى المحطة، ومضت في ضوء القمر الباهت تجوب الشوارع الجديدة الصاخبة وهي في طور التمهيد. وراحت تقرأ لوحات ورقعاً بأسماء مؤسسات لا تعرفها : «كيمياء الراديوم» و«غاز المشرق» و«مركز التيار العالي» و«مؤسسة المنافخ الهوائية» و«مكتب الأساسات الثقيلة» و«الجمعية العلمية لدراسة تذبذب الأجهزة الصناعية» و«فرع الجمعية الاقتصادية الحرة في الإقليم» وما إلى ذلك. وكان يفرحها أن آثار الطبيعة السحرية الغامضة والرقيقة تفعل فعلها وتعطي أُكُلها في صفوف البلاشفة ابتداءً من قوة الجاذبية وانتهاءً بالتردد الرقيق والموجات الكهرمغناطيسية التي تتململ في عتمة اللانهاية.

نوافذ مبنى فرع الجمعية الاقتصادية مضيئة. فتيات يعملن على لوحات التخطيط، ومهندس في مقتبل العمر، شابَ من الحياة التقنية الفوارة، منكبّ على تدقيق حسابات الفنيين بمسطرة اللوغاريثمات يشير بإصبعه المشوّه من كثرة العمل إلى الهفوات والأخطاء في التصاميم والتخطيطات.

مالت بوستالويفا برأسها إلى النافذة فلامس خدّها زجاجها وراحت تحدّق طويلاً في لذاتها من الفتيات والرفاق. الليل المقمر يسبح في الهواء الخفيف. فيما تواصل الأشجار والأعشاب نموّها في حدائق الصيف كما كانت تنمو سابقاً. لكن تلك الحدائق باتت خالية الآن، وكأنها ظاهرة ولّى زمانها، فلا أحد يتنزه في مماشيها ببهجة وحبور.

دخلت بوستالويفا مبنى الجمعية الاقتصادية، وهي تفكر متحيرة بالغرض الذي جاءت من أجله إلى المدينة. فطلبت من مديرة قسم التجهيزات مولداً كهربائياً بقوّة مئة حصان بخاري. لم تردّ مديرة القسم على طلب بوستالويفا، وتحاشت أن تنظر إليها، فاتجهت نظرتها إلى فضاء أبعد تسوده مجاعة الكهرباء. تألمت بوستالويفا لعدم وجود المولدات، وراحت تجوب غرف المؤسسة المضيئة الدافئة، فأعجبها الجهد المعمق للعلوم التقنية. ابتسمت إحدى المصممات ابتسامة عذبة لبوستالويفا. فلاحظت الأخيرة هذه البادرة الإنسانية رأساً، وانحنت على لوحة التصاميم لتتحدث مع المصممة كصديقتين. إحداهما تحنّ إلى وليدها الذي ينتظر أمه حتى منتصف الليل في غرفتهم المغلقة، فيما تريد الأخرى مولداً كهربائياً. المصممة تدرس في معهد التصميم صباحاً، وتسرع بعد الدراسة إلى العمل رأسا دون أن تعرّج على منزلها. وفي الليل كانت تقلل ساعات النوم لتقضي المزيد من الوقت مع طفلها. فوعدتها بوستالويفا أن تذهب إلى غرفتها في المساء وترعى الطفل إلى حين عودتها.

في اليوم التالي وفت بوستالويفا بما وعدت. وانتقلت للإقامة في مسكن المصممة ما بقي من مدة مأموريتها. أخذت ترسم للصبي، وهو في ربيعه الرابع، أبقاراً يطل عليها قرص الشمس، وصورة المسؤولة الحزبية الذكية العجوز فيدراتوفنا، ثم ثوراً ومناطحة قرب المشرب. وراح الصبي الوحيد ينصت إلى الشروح ويتطلع في هذه الوقائع مستفيداً ومبهوراً. وأخيراً

وصلت أمه وراحت، بدورها، تحدّثه طويلاً دون أن تجعله يأوي للنوم. حدّثته بالتفصيل عما فعلته طول النهار وعن مولد الكهرباء الذي بدأت ترسمه على الورق في المعهد نقلاً عن الأصل.

وفي الحال استفسرت بوستالويفا من أم الصبي عن مولد الكهرباء وعلمت أنه موجود في الصف كنموذج كبير للرسم والتصميم. وقالت المرأة إنها لا تعرف عدد الأحصنة البخارية فيه، ووعدت بأن تدرس هذه النقطة غداً في التعليمات المرفقة بالنموذج.

مضت بوستالويفا في الصباح إلى الدائرة التي توقفت للمبيت فيها أول مرة، وهناك سلّموها مذكرة بوجوب الحضور إلى محكمة الشعب ظهراً، فقد أقيمت عليها دعوى بتهمة إطلاق نعت «السافل» على مستخدم في الدولة.

تلا القاضي العمالي أمام الحضور الفضوليين تفاصيل الدعوى، ثم بادرهم فجأة بتبرئة ذمة المدعى عليها وأعرب لها عن الشكر علناً ليقظتها وحُسن تدبيرها، فيما أقرّ بأن المدعي سافل حقاً وأصدر بحقه العقوبة التي يستحقها الشخص المذموم. تحيَّر الجمهور في بادئ الأمر، إلا أنه شعر بالارتياح لحكم القاضي. أما المدعي فقد أطرق مجللاً بالعار والشنار إلى حين يتمكن من اجتراح مآثر مميزة في خدمة الطبقة العاملة.

خرجت بوستالويفا من قفص الاتهام وغادرت المحكمة وكأنها من نجوم المسرح، وسط استحسان الجميع. حتى

القاضي هتف يخاطبها: «مع السلامة، تعالي إلينا ثانيةً لفضح هذه العناصر!»

كان النهار لا يزال في منتصفه، والصيف في أوج قيظه، والوقت وقت تنفيذ الخطة التنموية الخمسية. انتاب فؤاد بوستالويفا قلق الحرص والعناية عندما توقفت وسط مركز الإقليم تحدّق بلهفة وتشوّق في هياكل مشاريع البناء، وفي الشاحنات المحمّلة بالمعدات الحديدية، وفي أبراج وأسلاك التيار العالي. شعرت بالألم لأن سوفخوز الألبان فيه الكثير من المناظر الطبيعية ولا أثر فيه للتكنيك ومواد البناء. كما تألمت لأن كميات اللحوم لن تكفي لهذا العدد الجرار الصاخب من البروليتاريا المشغولين في مشاريع البناء إذا كان حتى سوفخوز «أحواش الوالدين» لا ينتج سوى ألفي طن، وبالتالي عليها هي أن تناور وتجتهد بأسرع ما يمكن.

عرّجت بوستالويفا على معهد صاحبتها المصممة وشاهدت المولد القديم الذي تقوم الطالبات برسم قطع من أجزائه. قرأت في رقعة على المولد الساكن أنه ينطوي على ثمانمئة وخمسين أمبيراً ومئة وعشرة فولطات، لكنها لا تعرف هل هذا كثير أم قليل. عندما غادرت المعهد حررت برقية إلى فيرمو أبلغته بوجود المولد، مشيرة إلى أن فيه ثمانمئة وخمسين أمبيراً، وأن الكوادر الناشئة تتعلم التصميم عليه، فما العمل؟

ليلاً بعث فيرمو البرقية الجوابية التالية: «إبتكرت هيكلية عصرية أفضل للمولد، كل أجزائها من الخشب والأسلاك،

وسنطليها باللون المطلوب ونبعثها إلى المعهد. وما دام يمكن إجراء الرسوم التصميمية من النموذج الخشبي القابل للتفكيك والتجميع اعملي على مبادلة مولدنا الخشبي بمولدهم المعدني. هيكليتنا الخشبية أصلح وأنفع لدروس الرسم والتصميم».

وفكرت بوستالويفا: «يا عزيزي فيرمو، أين خطيبتك الآن؟ لعلها لا تزال تقرع الطبل في مخيمات الكشافة الصغار!..»

في اليوم التالي دخلت بوستالويفا على سكرتير الخلية الحزبية في معهد التصاميم. استمع الشخص الشاحب الذي لم يذق طعم النوم من أمس الأول إلى توضيحاتها ونهض من مقعده متحمساً للفكرة. وهتف قائلاً بعد أن امتلأ صدره بفرحة الوعي والإدراك العميق:

- خذي مولّدنا وأرسليه فوراً إلى سوفخوزكم! أما نحن فسنكتفي برسم أجزاء المحوّل لحين وصول المولد الخشبي من مهندسكم... ما كمية اللحوم المضافة التي ذكرتِها؟ نسيت الرقم...

- مئة طن أو مئتان - أبلغته بوستالويفا، ورغبت في أن تكافئ هذا الرجل، فهي تحب أن تقترن مشاعرها التجريدية إلى شيء ملموس من كينونة إنسان آخر كامن في دخيلتها. غير أن سكرتير الخلية كان ينظر إليها بعينين شاردتين، ولذا عدلت عن مكافأته.

بعد أيام أعدّ السكرتير بنفسه صناديق التغليف والشحن

وأرسل المولد إلى «أحواش الوالدين». وطلب من بوستالويفا في الوقت ذاته أن تأتي من جديد بعد ستة أشهر، إلا أنها اكتفت بابتسامة مبتسرة. فأضاف:

- وعندها نشمل سوفخوزكم برعايتنا.

- طيب - وافقته بوستالويفا - ساعدنا في فتح مجمّع تدريسي في السوفخوز. نريد أن نبلغ بحر الصِّبا العذري، وعندما نبلغه سنلد ملايين العجول والحوليات، ولن تجدوا وقتاً لتناول كل اللحوم التي سنزودكم بها... ولكننا في البداية بحاجة إلى تأهيل مئة راع ليكونوا مهندسين.

- بحر الصِّبا !- هتف السكرتير دون أن يعرف معنى التسمية، لكنه توقع أنها ظاهرة جيدة، فأضاف - سنفاتح اللجنة الحزبية في الأقليم، على سبيل الرعاية والإشراف، بمسألة فتح مجمع تكنيكي عندكم في الحال.

- نحن بحاجة إلى تدريس المعدات الكهربائية والهيدروليك ومبادئ تربية مواشي الذبح، بالإضافة إلى المواد التدريسية العامة...

- حاضر! - أجاب السكرتير فرحاً - سأطرح مسألة الإشراف هذا اليوم على اجتماع الخلية، وعلى الاجتماع العام. عانقيني.

عانقت بوستالويفا هذا الجسم النحيل الذي يحترق، دفعة واحدة، بسبب كل ما يلمسه في الحياة من مزايا وأفضليات.

- استحصل لي على مدافئ كهربائية لزرائب الأبقار،- طبعت بوستالويفا ابتسامة متواضعة على شفتيها دون أن تبعد نظرتها المتفحصة عن الرجل - وكذلك المعدات الحديدية اللازمة لها والمواد العازلة الخارجية، وحاجيات أخرى... هاك قائمة المواصفات.

- لا توجد مدافئ - قال السكرتير مشيحاً بوجهه - بعد شهر ستكون عندنا تطبيقات في مشاغل التصميم. وسنصنع لك المدافئ بعد شهرين على سبيل الرعاية. أعطني المواصفات. ألن يكون الوقت متأخراً؟

- طيب! - سمحت له بوستالويفا - كلا. أعتقد أن هذا الموعد سيكون مبكراً. فأنا بحاجة إليها في مطلع الشتاء.

انصرفت، فمال السكرتير برأسه على المكتب ولم يعد يشعر في دخيلته بأي إحساس حيال العالم المحيط به.

- سأكون مشرفاً... أنا مشرف! - هتف وانهمرت الدموع من عينيه، ثم عاد يقلّب أوراقه المعتادة على المكتب.

في ذلك اليوم توجهت بوستالويفا بعربتها المكشوفة إلى استثمارة تصنيع الأخشاب. وراودتها رغبة معقولة ومنطقية في البحث عن مشرفين في كل الأنحاء لتجد السبيل إلى أفئدة مسؤولي الطبقة العاملة وتكسب ودهم.

أمضت بوستالويفا في استثمارة الأخشاب عشرة أيام كاملة قبل أن تتمكن من استمالة المسؤولين عن أمور الاستثمارة. إلا

أن مديرها رأى أن يقوّي تعاطفه مع سوفخوز «أحواش الوالدين» بشيء أثمن من المجاملات الناشئة عن طيبة المزاج. فحرر التزاماً بالإشراف والرعاية من طرفين مفاده أن الاستثمارة تبعث إلى السوفخوز فوراً ما يحتاج إليه من جذوع وألواح ومنجورات وجريد وعصي وما إلى ذلك، على أن يقدم السوفخوز إلى الاستثمارة شهرياً طنَّين من اللحوم على سبيل التبرع!

ولكن عندما طرحت المسألة للمناقشة الجماعية على بساط البحث في اجتماع عمال الاستثمارة أعلنت بوستالويفا أنها مستعدة لإطعام الكادحين بشرط أن لا يأكل المدير من لحومها، لأنه طبق في مسألة الإشراف ممارسات انتهازية، وهي لا تريد أن تطعم الانتهازيين. فهي ليست من الليبراليين المتعفّنين.

نصف الجالسين في الاجتماع نهضوا لدى سماع هذه الكلمات وأعلنوا عن رفضهم تناول لحوم بوستالويفا التي انتزعها منها المدير قسراً. وألقى رئيس اللجنة النقابية كلمة تعبق بالإباء والشهامة أنكر فيها وجود أي بؤس ونفى أن تكون للعمال رغبة في تناول اللحوم المجانية على سبيل التطوع. فالطبقة العاملة في غنىً عن ذلك.

استمع المدير إلى هذا الكلام وكان في تلك الأثناء يسجل في مفكرته مسودة صيغة الاعتراف بخطئه اليميني الانقسامي الفاحش. وفي البيت لم يغمض له جفن طول الليل. كان

يحدّق عبر زجاج النافذة الشفاف في ظلمة الغابات وينصت إلى تغريد أطيار منتصف الليل ويترقب من سكينة الطبيعة وهدوئها مسكنات لقلقه ومشاعره المضطربة. إلا أن الهدوء لم يعاوده حتى في مثل هذا الجو. ذلك لأن موقفاً كهذا تجاه الطبيعة ليس من الديالكتيك بشيء، وإنما هو من فلسفة التبادل العيني، فلسفة أثرياء الريف. مضى المدير إلى المكتب مع بزوغ الفجر، وحرر هناك بالحبر صيغة التكفير عن غلطته ووقّع أمراً إدارياً بتزويد «أحواش الوالدين» بالأخشاب بكميات تزيد خمسين في المئة عما طلبته بوستالويفا.

في مساء ذلك اليوم عادت بوستالويفا إلى مركز الإقليم. وقد اشتد بها الحنين إلى السوفخوز. كانت أحياناً تشعر بمغص في المعدة بسبب الخوف، حيث يخيّل إليها أن حادثاً ما حصل في «أحواش الوالدين». أما الآن فلم يبق من همومها سوى طلب المكبس لصنع ألواح الروث، ومن ثم تعود إلى سهوبها. وبعد أن أمضت عدة أيام وليال صعبة في دوامة الدوائر الرسمية بحثاً عمن يتعاطف معها ويعطيها المواد اللازمة لبناء المكبس على سبيل الاستثناء من قواعد الخطط المرسومة مضت متألمة حزينة إلى اللجنة الحزبية في الإقليم. راجعت هناك أمين سر اللجنة الثالث، وهو سائق قطار مسن، استقبلها وبيده فنجان الشاي يحتسيه مع فطيرة منزلية، ويحاول أن يتصور بوضوح هيكلية المكبس الذي يصنع وقوداً من فضلات الماشية.

- طيب - قال الشيخ في الأخير وهو يتخيل الآلة الضاغطة

على الروث - لماذا كنت تتسكعين وتحومين حول كل دوائرنا البيروقراطية يا متخلفة حمقاء؟ كان عليك أن تراجعيني رأساً.

تلفن سائق القطار العجوز إلى معهد الأنواع الوقودية المجهولة وأمرهم أن يساعدوا «إحدى البنات» في حرق براز الأبقار، على أن يبلغوه بالتنفيذ مساءً عندما يعود إلى شقته.

- اذهبي الآن يا شاطرة إلى المعهد - قال أمين السر - وهناك سيعدّ الشباب لك المكبس... اسألي عن المهندس غوفت. إنه معاوني، ليس في هذه الدائرة بل في سياقة القطار... وإذا احتجت إلى أي شيء آخر تعالي إليّ.

عندما انصرفت بوستالويفا شعر أمين السر بالارتياح العميق. فهذا الميكانيكي العجوز أدرك أن الفتاة المنصرفة تحمل في دماغها مليون طن من الوقود الجديد. أجهز على الفطيرة المنزلية ومضى إلى أمين سر اللجنة الأول وأبلغه بأن الوقت حان لتحويل كل إفرازات المواشي المتراكمة في زرائب الإقليم إلى وقود. وافق الأخير على طرح هذه المسألة بين القضايا الجارية على بساط بحث المكتب الحزبي.

وحينما انعقد اجتماع المكتب وجّهوا الدعوة إلى اثنين من مهندسي معهد المحروقات المجهولة وإلى بوستالويفا نفسها ليتحدثوا في الموضوع. وبعد المناقشة كلف مكتب اللجنة الحزبية في الإقليم المعهد المذكور أن يعدّ في غضون شهرين مكبسين تجريبيين لسوفخوز «أحواش الوالدين»، وأن يحوّل

السوفخوز نفسه إلى محطة تجريبية تابعة للمعهد بعد الاتصال بالمهندس فيرمو والحداد كمال.

في الصباح التالي توجهت بوستالويفا، على جناح فرحة الإنجاز، إلى مزرعة «أحواش الوالدين»، لتستقبل هناك مستقبل حياتها.

* * *

خلال غياب بوستالويفا عن «أحواش الوالدين» نفقت ثماني عشرة بقرة، ونفق ثور الإنسال أيضاً.

كما لقيت سبع أبقار مصرعها في عراك شرس جنب المشرب الأبعد، حين فشل الثور في تنظيم تعاقب ارتوائها حسب الدور، فجنّ جنون الأبقار الهرمة وأخذت تنطح الحوليات الأصغر سناً، حتى أجهزت على سبع منها.

أما فيدراتوفنا فقد لازمت الفراش عشرة أيام تعاني من المغص والإسهال. ودأبت تلوك وتضغط بلثتيها على فكيها الخاليين لتنفّس عن الألم بصرير من أسنان لا وجود لها.

أجرى فيسوكوفسكي شخصياً تشريح جيف الأبقار واكتشف سبب موتها باعتبار أنها تناولت حبات كبيرة من البطاطس غير المقشرة قدمها علفاً لها إما رعاة طارئون ليسوا على الملاك، وإما مدسوسون مجهولون من عملاء أثرياء الريف. استدعى فيسوكوفسكي العجوز فيدراتوفنا التي تماثلت للشفاء إلى مكان

الأبقار الفاطسة وقال بصوت كسير وبدمعتين يتيمتين ترقرقتا في موقيه:

- لم أعد أطيق العمل في مؤسسة كهذه!.. أنا اختصاصيّ، لا أقارب لي في الدنيا. وهنا نبذل الجهود لتربية المواشي، بينما يطعمها أثرياؤكم حبات بطاطس كبيرة تخنقها خنقاً، وآباركم ناشفة لا ماء فيها... إذا بقي الأثرياء بينكم، وإذا بقي الماء شحيحاً، يتناقص يوماً بعد يوم، لن أبقى للعمل عندكم. عامين كاملين كنت أحب الحولية التي أطلقنا عليها اسم «الخطة الخمسية» حتى بلغ وزنها مئة وستين كيلوغراماً. ربيت هنا أم اللحوم هذه. فنفقت تحت الحوافر في مناطحة بسبب شحة الماء! تلك هي الثورة المضادة بعينها. سأرفع شكوى عليكم أو أموت!..

ألقت فيدراتوفنا نظرة شزراء على فيسوكوفسكي، كعادتها عندما تنظر إلى اللاحزبيين.

- أي أثرياء بيننا، يا أحمق، يا ضيق الأفق؟... اذهب إلى البرية الأبعد واحرس قطعانها، فقد أمرتُ بحبس جميع الرعاة.

- سأذهب حالاً - أذعن فيسوكوفسكي ومسح وجهه وانصرف.

كما أوعزت فيدراتوفنا إلى فيرمو وكمال وفريقيهما المنهمكين في حفر أساس الطاحونة الهوائية، وأساس بناية

أخرى لم يوضح فيرمو الغرض منها لأحد قبل أن تصل بوستالويفا، أن يذهبوا، بكل مكوناتهم البشرية المنصوص عليها في القيد، لحراسة قطعان التسمين. فيما استقلّت هي الحنطور وتوجّهت إلى كولخوز أومريشيف دون أن تتوقف في الطريق.

الهدوء يسود الكولخوز، والدخان يتصاعد من مداخن عديدة ضعيفاً متراخياً في حر الشمس وغياب الريح. والنسوة يخبزن الفطائر والأرغفة. وأبقار التسمين البدينة والجياد تقيم في باحات البيوت، والدجاج في الشوارع ينبش رماد المخابز، والعجزة يتدفأون على المصاطب ليعيشوا بقية حياتهم الآفلة، كعادة العجزة طوال القرون. الأكواخ الكئيبة تنتصب ساكنة تحت أشعة الشمس، الأزلية في هذه الأنحاء، كقطيع من خراف متباعدة. والدروب الخالية تمتد من الكولخوز صاعدة إلى الآفاق المطلة على ربوعها. والفلاحون يغطون في النوم، ويشخرون بهدوء، بعد أن تناولوا المزيد من الفطائر بالزبدة. على مشارف الكولخوز صادفت فيدراتوفنا أربع نساء يحملن في أوعية فخارية فطائر ساخنة لأزواجهن الرعاة الموقوفين. ولم تكن تلوح على تلك النسوة أمارات الحزن، فأبدانهن تترنح من الشراب والطعام الدسم، وكنّ يتجاذبن الحديث بصخب وضجيج.

كآبة السكون انبسطت على سطوح القش المائلة إلى السواد. وفي باحة أحد البيوت يدور ثور مخصي ربما كان يدير

بكرة بئر الماء. العارضة التي رُبط إليها الثور طويلة جعلته يقوم بدورة كبيرة. ولذا اقتلعوا من أجله قاطعاً من السياج المجاور، فكان أثناء الدوران يظهر في الشارع تارة ويختفي وراء البيدر تارة أخرى. ولم يكن يعكر سكون الكولخوز الناعس في الظهيرة سوى صرير، أشبه بالغناء الانفرادي، ينبعث من البكرة التي تديرها الدابة الهائمة في حلقتها المغلقة.

أوقفت فيدراتوفنا حنطورها، ومضت ماشية بين الأكواخ. كانت تستهجن دوماً حياة الريف المخالفة للعلم والمنطق، وتمتعض من بناء الأفران والمداخن دون مراعاة النظرية الصحيحة لاستخدام الطاقة وتدهور حالة النظافة العامة والتحايل الطبقي الذي يمارسه الموسرون من الأهالي.

في أول كوخ تفقّدته وجدت فيدراتوفنا مخالفة صارخة تجرح العينين. ففي الفرن قِدران يطفح منهما الحساء، فيما جلست ربة البيت على المصطبة، وبيدها ملقط القدور، دون أن تحرك ساكناً.

وفي الحال اندفعت فيدراتوفنا إلى الفرن وسحبت كلا القِدرين الساخنين بيديها العجفاوين. وقالت للمرأة وهي تشتاط غضباً:

- ليس فيك ذرة من التعليم يا شيطانة، يا أمّية. ألا تعلمين، يا وقحة، يا حمقاء، أن السوائل تتمدد بالحرارة؟ لماذا ملأت القِدرين بالماء عن آخرهما؟ ألكي يطفح السمن وينسكب مع الماء الفائض؟ أكيد أنك انتسبت إلى الكولخوز

بعد ممانعة شديدة. فكيف لنا أن نوفر لك تعليماً، يا جاهلة، قبل أن نخنق شيطان النزعة الفردية في نفسك؟.. أوه، عذبتمونا يا منافقون!.. ربما أعود إليك فيما بعد... وقبل ذلك سأتأكد من مواظبتك على دروس محو الأمية، ومن مهماتك الاجتماعية هنا، يا بلهاء!

انصرفت فيدراتوفنا منقبضة الأنفاس، فيما دهشت المرأة القروية في البداية. ثم ابتسمت.

في الكوخ الآخر أخذت فيدراتوفنا تتذوّق اللبن والقشدة على سبيل التجريب. فاكتشفت أنهما من ألبان السوفخوز وليس من منتوجات الكولخوز، ذلك لأن نسبة السمن فيهما عالية، ورغوهما لذيذ الطعم. لم تتفوّه العجوز بكلمة في هذا الشأن. واكتفت بآهة عميقة أضافت المزيد من الغضب إلى احتياطيه في قلبها.

وفي الكوخ الثالث رأت فيدراتوفنا فلاحاً كولخوزياً يخرج مسرعاً دون أن يلتفت إليها، فجلست على أوراق راعي الحمام في انتظاره. من المستودع الموارب تتناهى أصوات تقيؤ وفواق سرعان ما تحولت إلى سكرات موت أليمة. اقتربت فيدراتوفنا من المستودع ورأت عبر شقوقه بقرة تصارع الموت، وجنبها بقرتان أخريان تلعقان رأسها الذي دوخه النزع الأخير. وفي تلك اللحظة عاد الفلاح راكضاً وبيده فأس وفي اليد الأخرى إيصال خطي. فتح باب الزريبة وأجهز على البقرة بالفأس وورقة الإيصال بين أسنانه. وبعد أن فرغ من مهمته دسّ يده في

تجويف فم البقرة وأخرج من هناك حبة بطاطس هائلة مدعوكة، ملطخة بالدم والمخاط.

كان بعض الأهالي قد لاحظوا حنطور فيدراتوفنا، فتراكض أولاد القرويين الأثرياء إلى الأحواش محذرين من يهمّهم الأمر بأن العجوز نفسها قد وصلت وأن عليهم أن يلتزموا الهدوء، فيما تمضي البقية الباقية من الأثرياء للاختباء في آبار المياه. وفي الحال خفتت نيران عدد من أفران القرية، ولاذ آخر الأثرياء الشطار بالفرار، عبر الأعشاب العالية، إلى الآبار ونزلوا فيها بالحبال وجلسوا على مصاطب مثبتة على جدرانها الداخلية من زمان، وراحوا يدخنون.

ما إن خرجت فيدراتوفنا من باحة آخر كوخ في القرية، ووقع بصرها الحاد على مؤشرات تبدل الجو العام هناك، حتى أخذ كل شيء في داخلها يغلي، بما في ذلك ما تناولته من طعام.

فمضت إلى صديقها العجوز المعدم كوزما يفغينيفيتش إيفانوف، وكان مستلقياً يستجمّ بعد العمل.

استقبل كوزما إيفانوف المرأة العجفاء بما اعتاد عليه من ترحاب، وكشف لها عن سر كولخوز أومريشيف.

قال العجوز كوزما المولع بالمشاهد الضبابية الغامضة منذ العهد القديم:

- أنا هنا بمثابة نشرة الأخبار السينمائية، أرى كل شيء وأعرف كل شاردة وواردة. . . ما يجري هنا، يا عزيزتي، يثير

العجب العجاب، حتى آخر النظريات تخبو وتخفت بين الضلوع بالمقارنة معه!.. سأسخن لك الشاي في الغلاية.

ثم أعلن العجوز الفقير، بعد أن سخن الشاي، أنه انسحب ظهر الأمس من تنظيم الكولخوز، وتحوّل إلى ثوري فردي مستقل، ذلك لأن أومريشيف أنشأ هنا وكراً لأثرياء الريف.

أخذت فيدراتوفنا بخناق الفلاح الفقير حالما سمعت منه هذا الكلام، وتشبثت ببقايا شعر رأس العجوز وأرغمته على الانحناء وراحت تضرب عجيزته بحاشية تنورتها:

- خذ، أيها الثوري المستقل، خذ يا رقيب الأثرياء، خذ يا نشرة الأخبار السينمائية. إذا كنت ترى وتعرف كل شيء فلماذا تصمت؟ تحرّك وتمرّد يا ابن الكلب العجوز. هاك، خذ المزيد على النظريات الخافتة بين الضلوع! يا ويلك! حذارِ أن تكون ليبرالياً، حذار! حاول، ابذلْ جهدك، انشط، اكشفْ عنهم، ساعدنا، اخطُ، ولا تستلقِ مسترخياً. لا تكن فردياً، لاأبالياً. تدخَّلْ، تدخَّلْ في كل شيء، افتح عينيك ولا تعذّب السلطة السوفيتية!..

استعادت فيدراتوفنا هدوءها بعد المعركة واحتست الشاي كيلا تفرط بالماء المغلي، ومضت لتتفقد اقتصاديات الكولخوز. واتضح لها أن في كل حوش أو كوخ مجموعة كاملة من أدوات العمل الحية والجامدة، ابتداءً من الحصان وحتى المحراث، ناهيك عن المواشي المنتجة للألبان والصوف. فما الذي تم تأميمه في هذا الكولخوز يا ترى؟!

لم تجد فيدراتوفنا هناك اسطبلاً جماعياً للخيول ولا غيره من المؤسسات الخدمية المشتركة، على الرغم من أنها نبشت القرية برمّتها، حتى نزلت إلى السراديب وصعدت إلى الجمالونات.

أسرعت فيدراتوفنا إلى مدير الكولخوز أندريان أومريشيف مشغولة البال بهذه الظاهرة العسيرة على الفهم، وبصدر يكاد ينفجر من الغضب والهيجان. واتضح لها أنه يعيش في المنزل الذي يدور الثور المخصي في باحته مربوطاً إلى نير دوارة البئر.

كان جالساً في غرفة مسدلة الستائر، وعلى الطاولة أمامه مصباح بأباجور أزرق يطالع على ضوئه كتاباً، ويسهّل المطالعة باحتساء الشاي المبرد. وإلى جانب المصباح كانت على الطاولة مروحة تنفث في وجه الرجل المتأمل هبّات تساعده على التفكير بلا انقطاع. ولتضلعها في العلوم تفحّصت فيدراتوفنا المروحة واستنتجت أنها تدور بقوة ثور مخصي يتعقبه ويستحثه سائس لا تبدو عليه أمارات الانشراح. الثور يحيل قوّته الحية إلى الدوارة، ومن الدوارة تمتد، عبر محاور التحويل، حبال مفتولة سميكة، ربطت إليها حبال وخيوط أرفع منها، فيما يدير المروحة خيط متين.

- مرحباً، يا هذا! - بادرته فيدراتوفنا، فأجابها أومريشيف:

- أهلاً بك، يا هذه! ما لكِ تحومين في كل الأنحاء؟ أليس

الأفضل أن تستقرّي في مكان واحد وتحافظي على جهودك ورأسك؟!

- ماذا دهاك؟ هل بقي عندك شيء من الديالكتيك التطبيقي؟ لماذا بنيت عشاً لتفريخ الأثرياء؟ أنا أعرف كل شيء عنك، يا شيخ، وقد رأيت كل شيء، يا شيخ. اخرس يا متحجر، اخرس يا تعيس! وإلا سأصفعك!

- اجلسي - قال أومريشيف، وأسند رأسه المتعب بإحدى يديه، فيما وضع اليد الأخرى على الصفحة التي فرغ من قرائتها - اجلسي يا عجوز، فأنا لا أتحدث مع الواقفين... هل رأيتِ عندي مؤشرات عدم المسؤولية الشخصية في المرحلة الأولى من إدارتي؟

- عن أي مسؤولية شخصية تتحدث؟ - انتفضت فيدراتوفنا منفعلة كفتاة في ربيع العمر - ألا تعلم أن أعضاء كولخوزك كانوا رعاة في سوفخوزنا، وأنهم قادوا أبقارنا إلى الموت، وأن فلاحاتك يحلبن قطعاناً كاملة من مواشينا، وأن...

- لا تهذري، يا عجوز - اعترض أومريشيف - شدّدي قبضتك في الإدارة وتقيّدي بالسياسة الطبقية حيال الأيدي العاملة والتزمي المزيد من الدقة والوضوح في منصبك.

لاكت العجوز بفكيها الخاليين، مختنقة بمشاعر الغضب والكراهية. ولم تحر جواباً. فيما واصل أومريشيف كلامه بلهجة هادئة مطمئنة:

- تأملي في منجزاتي. ليس لدي نتن غياب المسؤولية الشخصية. فكل فلاح مسؤول عن حصانه وأبقاره وأدواته وقطعة أرضه المثبتة باسمه. الكولخوز مقسم إلى قطاعات، وفي كل قطاع حوش فلاحي واحد وقطعة أرض واحدة، وفي الحوش مسؤول واحد هو صاحبه أو مدير القطاع.

- ولمن تعود ملكية الجياد التي في عهدة أصحابك هؤلاء؟

- تعود لهم - أوضح أومريشيف - أنا أراعي حساسية تعلُّق الكولخوزيين بالماشية التي كانت ملكاً لهم. فأنا في هذا الموقف مدير من لحم ودم، ولست آلة من الآلات، كما أنني لا أعوّل على الغيبيات.

كادت العجوز ترتعد من شدة الغضب العقائدي، لكنها تمالكت أعصابها، كما تقتضي الحكمة والسَداد. فقالت بصوت خافت ضعيف:

- على أية قائمة يقوم الكولخوز، يا شيخ؟

- الكولخوز يقوم عليّ وحدي. إنه قائم هنا - لمس أومريشيف جبهته براحة يده وأضاف:- هنا تلتقي كل المتضادات وتتحول بقوة أفكاري إلى شيء له قيمته. الكولخوز مفهوم فلسفي، يا عجوز. وأنا هو ذلك الفيلسوف.

- وهل انتسب كل الفلاحين إلى كولخوزك، يا شيخ؟

- كلا، يا جدتي، فأنا لا أتعامل بالمقادير الكلية المطلقة. - أوضح أومريشيف. - كل ما هو مطلق يتحول إلى ضده.

- أرني، إذن، البيان الطبقي.

عرض عليها أومريشيف فقرة على ورقة جاء فيها أن تسعاً وعشرين عائلة فلاحية فقيرة وضعيفة الحال غير منتسبة إلى الكولخوز. انسحبت منه بمجيء أومريشيف. علماً بأن مجموع العوائل في القرية أربع وأربعون.

نطت فيدراتوفنا من مقعدها، وتكوّر بدنها كله، متأهباً للدخول في مناوشة قاسية مع أومريشيف. إلا أن رجلاً غريباً في جزمة لبادية ولج الباب في تلك الأثناء. وقال مخاطباً مدير الكولخوز:

- مرحباً، رفيق أومريشيف. وقعت في داهية وأريد أن أعرض مصيبتي عليك!

- مصيبة؟ - تساءل أومريشيف مندهشاً - بالنسبة للمتبحر في الديالكتيك المادي النظري، يا رفيق سفياشيني، المصيبة تتحول دوماً إلى ضدها. ولا يخشى المصائب إلا المثاليون.

وافقه سفياشيني، طبعاً، على أن المصيبة بالنسبة له ليست فظيعة. إلا أن التفاح المنقع من الموسم المنصرم فسد في التعاونية حتى بات مملحاً كالخيار المكبوس، بينما فقد الجزر حلاوته لطول التخزين حتى صار مُرَّ المذاق.

- رائع! - هتف أومريشيف فرحاً - ذلك هو ديالكتيك الطبيعة، يا رفيق سفياشيني. تستطيع الآن أن تبيع التفاح وكأنه خيار، وتبيع الجزر وكأنه فجل!

انطبعت على وجه سفياشيني الشائخ العريض ابتسامة ساخرة، جعلته أكثر بشاعةً بما عليه من مخلفات العمر الطويل وندوب تركتها معارك لا يعلم بها إلا اللّه. ألقى على العجوز فيدراتوفنا نظرة مشوبة بفضول غامض، ثم أطلق ضحكة مبتورة، لاذ بالصمت بعدها في خوف مفاجئ وكأنما أفاق في داخله وعي ذاتي يحذره من عاقبة الأمور. وفاح في الغرفة من فمه بعد ضحكته تلك هواء نتن يفصح عن مدى القوة الهضمية التي يحملها هذا الإنسان ومدى العناء الذي يتحمله في مواجهة هدير بدنه وأبخرة جهازه الهظمي وبراكين مشاعره.

جلس سفياشيني على المصطبة يلهث من ثقل جسمه الذي لم يكن بديناً على أية حال، بل هو ضخم في مواضع العظام البارزة وفي جميع التجاويف المقعرة والنتوءات المحدبة المكيفة لتحسس كل ما هو خارجي وغريب عليها. كان يبدو، وهو جالس، أضخم من جميع الواقفين، فيما كان مقاسه متوسط الحجم على وجه التقريب. نبضات قلبه مسموعة من بعيد، وأنفاسه متلاحقة، وعيناه تسلطان على الآخرين نظرات رطبة بليلة تثير الانتباه. وحتى في جلسته تلك كان يعيش في قلق نفعي توّاق، على ما يبدو، إلى انتزاع شيء ما من الحاجيات الملموسة، والانتفاع بكل ما له قيمة في حياة المالك الفردي، ومضغ كل ما يشبه اللقمة السائغة وابتلاع ما يمكن ابتلاعه ودفعه إلى جوف بدنه المتلهف الخاوي، واحتضان الأحياء واستنزافها والتمادي في التهامها لحد التخمة

والموت في عالم يلفظ آخر أنفاسه بعد أن يستهلكه ويشربه حتى الثمالة.

دس سفياشيني يده في كيس من الجنفاص، ملحق بسرواله كجيب إضافي، وأخرج طبيخاً التهم منه أربع حفنات. ثم أخذ يمضغ شريحة سجق أخذها من جيب الجنفاص ذاته. كان يأكل. وكان واضحاً أن القوة تتجمع فيه وتنفخ وجهه بحمرة الدم القاني حتى أن ظلاً من الكآبة لاح في عينيه. فهو يعرف شحة الظروف المحلية وعجزها عن تلبية احتياجات معيشته التي ليس أمامها سوى أحد أمرين، فإما أن تنفجر وإما أن تغرق في الوفرة والرخاء. ظل سفياشيني يمضغ ما في جيبه بصمت، وكيانه المنتفخ يبعث همهمة كالهدير.

تذكّر أومريشيف أنه جائع وأن التفكير واقع مادي، فطلب طعاماً من سفياشيني. فشعر هذا بارتياح مفاجئ جعله يقذف ما كان يمضغه وكأنه يتقيأ، وأخرج من الكيس على جنبه قطعة ملتوية من السجق المدخن. أخذ أومريشيف القطعة بلامبالاة، فيما ندت عن فيدراتوفنا زعقة مبتسرة، كآهة من فتاة في مقتبل العمر، عندما وقع بصرها على السجق الملتوي، وضيّقت جفونها من الخجل والاستحياء. فقد رأت فيه العضو التناسلي مقطوعاً من ثور الإنسال في السوفخوز.

أما أومريشيف الذي قرأ الكثير في الفيزياء والرياضيات فلم يعد يتقزز من شيء، لأن كل شيء في الدنيا يتكون من إلكترونات. فالتهم ذلك السجق المشبوه.

فتحت فيدراتوفنا جفونها وهجمت على أومريشيف وعضّته. إلا أنه لم يشعر بالألم لغياب الأسنان في فم العجوز. وظن أن بقايا الانفعالات ثارت في صدرها كمؤشر على الطريق إلى القبر. ثم إن سفياشيني الذي أطلق قهقهة مدوية تلقّى هو الآخر عضة من فم العجوز. لكنه فرح لتلك العضة.

توقفت المروحة على مكتب أومريشيف. ودخل الغرفة السائس ناعساً متراخياً والفأس بيده. أبلغ السائس، فيما أبلغ، أن الثور كان معافى لا ينقصه العلف، إلا أنه شعر بالاكتئاب في الآونة الأخيرة حتى نفق قبل قليل: «ربما بسبب رتابة عمله من أجل شخص لا خير فيه».

- أنا الآن مرشح للعضوية في الحزب، ولن أبقى للعمل في الكولخوز. - قال السائس والتفت إلى فيدراتوفنا - يا جدتي، أنت من السوفخوز، خذيني للعمل فيه.

- ماذا جرى لك يا عزيزي؟ - سألته فيدراتوفنا - لماذا لم تخبر الحزب حتى الآن؟ فأي مرشح للعضوية أنت، إذن؟

- لم أعد بخير هنا، يا جدتي، الفؤاد فسد بسببهم، والدماغ تعطل...

- من الذي أفسد فؤادك؟

- هؤلاء. - أجاب السائس - نظريتهم هي ضرب السوفخوز ودعم الملّاك الفرديين الأثرياء... ميشكا سيسويف اقتاد حوليتين من قطعان السوفخوز، وأنتِ لا تعلمين. باعهما

لعضو التعاونية الكولخوزية الرفيق سفياشيني لأجل اللحم المفروم. في التعاونية الرفيق سفياشيني يفرم اللحوم طول الوقت. وكان يريد في السابق فتح معمل للسجق. لكنه الآن ينتظر نشوب الحرب. . . ميشكا سيسويف وبيتكا غولوفانيتس كانا من رعاة ماشيتك، وأرادا أن يسرقا أبقارك. قاما بنحرها في السهب، ووعدهما الرفيق سفياشيني بإرسال حصان، لكنه تشاجر مع الحصان وقتله. نحروا الأبقار وليس هناك واسطة لنقلها. بينما قبضتِ أنتِ على الرعاة وحبستِهم في المستودع. وهم الآن يصرخون في محبسهم وقد نفد صبرهم. والنساء يحضرن لهم الفطائر من لبنك ومن دقيقهن. . .

- أنا لم أوجه بضرب السوفخوز - زعق أومريشيف - فأنا منظّر ولست تطبيقياً. إنني أقيم هنا بحكم الضرورة التاريخية، وفي الآونة الأخيرة تحولت إلى العلوم الدقيقة، بما فيها الفيزياء ودراسة الأجسام الكبيرة اللامتناهية! هذه افتراءات من العدو الطبقي على كوكبة العاملين النظريين!

راح سفياشيني يقهقه بلا انقطاع كالمهووس، فيما يعبّر أومريشيف عن استنكاره العميق، ولكن بلغة نظرية صرف.

أما الجو في الخارج فكان قائظاً طول النهار الذي يقترب من نهايته وسط الغبار الصحراوي المتراخي الممزوج بدخان التربة المحلية المستعرة. الكولخوز كله ملفع بهذا الجو الضبابي غير المفهوم.

- هنا جرت تصفية الأثرياء، فمن بقي منهم؟ - تساءلت

فيدراتوفنا وهي تسلط نظرة يقظة على الحاضرين - أين ذلك اللعين المتاجر بالمبادئ؟

- هؤلاء هم - أومأ السائس بفتور إلى أومريشيف وسفياشيني - وتحتهم تقبع بقية الأثرياء الذين يكتنزون السمن من لحوم أبقار سوفخوزك. خلال عام واحد التهمت سبع عشرة عائلة مئة من أبقارك، بل وأكثر. يخدعونك وأنت لا تعلمين. . .

تظاهرت فيدراتوفنا بأنها غير مندهشة، فيما اقشعر بدنها وارتعد من الاستياء والاستنكار. فسألت:

- لماذا تفرّجَ فقراء الكولخوزيين وصمتوا ولم يبلّغوا؟

- أنا نفسي من فقراء الكولخوزيين - قال السائس مندهشاً لما قال، فهو لأول مرة يفكر بهويته الفعلية - فكيف تعتبرينني صامتاً وها أنا أتكلم؟ هاكِ، خذي الفأس، وإلا سيقتلك الرفيق سفياشيني في الحال.

تقدم سفياشيني إلى الأمام قليلاً وأمسك بسائس ثور المروحية في موضع الخصر من بدنه الضعيف وأخذ يضيق الخناق عليه حتى الموت. إلا أن السائس ضربه بالفأس على يافوخه، فجاءت الضربة خفيفة من يد متعبة، وهوى الرجلان على الأثاث. لفت أومريشيف غير الميال إلى ممارسة الأفعال انتباه فيدراتوفنا إلى عدم جواز الحادث بالمطلق. ولم يكن سفياشيني، أثناء سقوطه في تلك اللحظة، قد قضى نحبه بعد.

ذلك لأنه اخترق الجدار بقدميه إلى الخارج وأطل على القرية بطرفيه الاثنين. إلا أنه لم يتمكن من سحبهما مجدداً إلى داخل الغرفة، فالسائس واصل، بصبر وإصرار، ضربات الفأس على رأس غريمه.

أمسكت فيدراتوفنا السائس من يده وقادته إلى الباحة. فشرب الكثير من الماء هناك، وألقى نظرة على العالم الذي ظل بدون سفياشيني، وقال مبتهجاً:

- الحقيقة، كنت أعمل في الحر الشديد حاسر الرأس فأصاب الضعف دماغي. ولذا لم أبلغك بشيء. حالما أباشر العمل عندكم في السوفخوز أشتري قبعة.

- كلا، يا ولد، لن تعمل في السوفخوز... لماذا قتلت الرجل يا سافل؟ هل أنت السلطة السوفيتية حتى تتحكم بمصير الطبقات الغريبة عليها؟ أنت نفسك جُزيء تافه، إنك اليوم أسوأ من الإلكترون!

امتقع وجه السائس وأطرق برأسه الذي وخطه الشيب قبل الأوان.

- السبب هو الحر الشديد، يا جدتي. الحر سخن دماغي. ساعديني كي أشتري قبعة!

حملت فيدراتوفنا السائس على الانحناء ولمست رأسه الأشعث:

- كلا، أنت تكذب. ودماغك سليم...

على أطراف الكولخوز هبّت عاصفة كالدوامة تقتلع من الأرض مختلف المتروكات القروية العتيقة. وخلف العاصفة تقدمت بلا تردد سحابة كثيفة من غبار الطريق. إنه القطيع الإضافي لسوفخوز «أحواش الوالدين» يسير من عدة أيام ليجتاز مئة كيلومتر أو يزيد. وخلف القطيع رعاة على ظهور الثيران المخصية يأكلون البطيخ الأحمر لإطفاء الغليل.

أمرت فيدراتوفنا السائس القاتل أن يذهب إلى السوفخوز مع القطيع، وينتظرها هناك. ثم استقلت حنطورها متوجهة إلى اللجنة الحزبية في الناحية.

لم تجد فيدراتوفنا سكرتير الحزب في الناحية. فقد توفي بفترة وجيزة بعد استقباله بوستالويفا. بسبب الهزال انفتق في بدنه جرح داخلي من زمن الحرب الأهلية.

السكرتير الجديد، الرفيق أوبريدلونوف، مطلع على واقع الحال في كولخوز أومريشيف، وكان على علم بأفعال العناصر الرأسمالية الخبيثة التي تحيط بـ«أحواش الوالدين».

وها هو الآن يأسف حزيناً لأنه لم يتفقد شخصياً الكولخوزات المتأثرة بفلسفة أومريشيف، فيما تسرع حتى هذه العجوز على حنطورها وتجوب السهوب بلا كلل وتنشط بقوة فاعلة.

انهالت فيدراتوفنا باللوم على أوبريدلونوف. وقالت إنه أسوأ من الميت لأنه يدير الناحية من كرسيه، وإنه سينزلق في

النهاية إلى التحجر الشكلي ويغرق في نظرية ترك الحبل على الغارب. إلا أن السكرتير، ورغم امتعاضه الطفيف، شعر بالارتياح لوجود عجائز من هذا النوع بين الناشطين في الناحية.

- يا جدتي،- قال السكرتير بمودّة - سنناقش مسألة أومريشيف اليوم في جلسة مكتب اللجنة الحزبية وسنحيله باسم الحزب إلى المدعي العام. أما أنت فسننقلك من السوفخوز لتشغلي منصب أومريشيف في إدارة الكولخوز. هل توافقين؟

شعرت فيدراتوفنا بشيء من الاكتئاب، إلا أن وعيها سيطر رأساً على هذا الشعور الشخصي التافه، فقالت:

- نسِّقْ مع مديرة السوفخوز، أيها الرفيق السكرتير، وحرر أمراً بالتعيين... إما الاشتراكية وإلا فلا... تلك هي القضية، أليس كذلك؟!

أشاحت بوجهها، ومسحت بطرف بلوزتها، مثل أي امرأة من عامة أهل القرية، دمعة أسف ترقرقت في عينيها. كانت متأثرة لمفارقة بوستالويفا. فبادرها أوبريدلونوف:

- ماذا دهاك؟

- لا عليك. اكتب، اكتب ما يتعلق بأمورنا الحزبية. أما ما تراه فهو مشاعر المرأة العجوز تطفو على السطح.

- حقاً.- قال السكرتير وهو يكتب على الورقة ما يخص جدول الأعمال - لكنني ظننتك متألمة لشيء ما.

- كيف لا أتألم؟ كيف؟ - زعقت فيدراتوفنا على غير

المتوقع - أم أنني امرأة بلا قلب، بلا روح؟ امرأة غريبة على هذه الديار؟ يا أحواشي الحبيبة، ها هو الشرير أومريشيف ينتزعني منك. قلبي منقبض يا عزيزتي الرفيقة ناديجدا بوستالويفا. عودي بالسلامة...- ومالت بوجهها على مكتب السكرتير ونحيبها يتعالى في أجواء مركز الناحية.

بعد ساعة سألها السكرتير الصبور:

- كيف أنت يا جدتي؟

- جفَّت الدموع. أعطني تعليمات بتصفية مدرسة أومريشيف الفكرية.

انطبعت على وجه السكرتير ابتسامة استمرّت طويلاً، ولم يعمد إلى تلقين العجوز الذكية الحساسة أية معلومات أو تعليمات، فهي بنفسها باتت تعرف كل شيء.

* * *

عادت ناديجدا بوستالويفا إلى «أحواش الوالدين». وصلت بهدوء، في ساعات المساء، على عربة حوذي ممن يخدمون المحطة لحسابهم الخاص.

توقفت في الطريق قبل أن تصل السوفخوز بمسافة غير بعيدة. وقد انتصب فيه برج لا علم لها به. برج كبير ونافع حسب الظاهر رغم قلة ارتفاعه. الشمس الغاربة تنير المادة القاتمة المحلية المستخدمة في بناء البرج. وإلى ذلك انتصبت

في السوفخوز طاحونة هوائية ضخمة ذات قوة هائلة. وهي الآن تدور في هواء ساكن تماماً.

وعندما اقتربت بوستالويفا أكثر تيقنت أن المساكن الطينية لم تعد موجودة في السوفخوز، كما لم يبق هناك أثر «لأحواش الوالدين» المأهولة في السابق، لا أشجار الصفصاف، ولا الأشياء المعروفة الأخرى مثل المماشي ونبات راعي الحمام والصخور النادرة التي جاءت بها قوة مجهولة إلى هذه البقاع. كل ما هناك تربة ثقيلة مقلوبة كما لو كانت بعد معركة فارق مقاتلوها الحياة الدنيا.

- ماذا حدث؟ - سألت بوستالويفا مذعورة - أين سوفخوزي؟

أوضح لها الحوذي أن السوفخوز موجود هنا ولا بدّ، وأضاف مشيراً إلى البرج والطاحونة:

- أما هذه فهي عوامل لا غير. في السهب اليوم كثير من العوامل، ولا علم لي بها. أنا أقيم على مقربة من النقليات، بعيداً عن هذه الأنحاء. مصطلحات النقليات أعرفها: حمولة العربة، الوزن الصافي، قطر العنق، فرملة كازانتسيف، المغلاق الأوتوماتيكي، ثلاث صفرات للفرملة اليدوية، صفرتان لإنهاء الفرملة. العفش لا يُسلَّم إلا بوجود تذكرة السفر، وما إلى ذلك. أما السهوب فأنا لا أحبها. وجودي فيها نادر للغاية. أنا أحب عربات القطار المدفأة بالبخار، وكذلك قمرات المناوبة. حياة المناوبين مريحة في القمرات. فالهدوء حواليها، والعمل

قليل، والقطارات تمرق جنبها، وليس على المناوب سوى أن يخرج بين الحين والآخر ليرفع المؤشر لسائق القطار، ثم يلقي نظرة على قاطع السكة، ويعود ليطبخ العصيدة. . .

ألقت بوستالويفا نظرة متفحّصة على هذا الشخص العابر الذي التقته بالصدفة، وفكرت: ما أكبر الحياة وما أصغر الكائن الذي تستقر فيه وتداري الأمل بين جوانحه. . .

أربعة ثيران مخصية تتحرك على تموجات أرض السوفخوز التي تعرضت للتجريف، وتدير الطاحونة بالمقلوب، أي أن الدواب تدير الزعانف من تحت في الهواء، بينما يدير الهواء الجاري آلة الرفع. سألت بوستالويفا مندهشة من كمال الذي كان يراقب هذه الظاهرة الغريبة مسروراً: ما معنى ذلك؟

مدّ لها كمال الذي عُيِّن في ذلك اليوم سكرتيراً للجنة الحزبية يداً متورّمة من العمل وقال:

- نعمل تعشيقاً واحتكاكاً لأجزاء الميكانيزم كي تتلاءم فيما بينها أثناء العمل. حتى القاطرة الجديدة لا تسحب نفسها من تلقاء ذاتها ما لم يتم تعشيقها وتجريبها. . .

كان المهندس فيرمو يستحث الثيران جنب الطاحونة، في ثياب رثة، وقد أدركته الشيخوخة بعض الشيء خلال الفترة المنصرمة. لاحت عليه بوادر الفرحة لرؤية بوستالويفا، إلا أنه غرق في تأمل عميق لشكوك جديدة انتابته في الحال. فقال:

- رفيقة ناديجدا، ما رأيك لو نقوم بتصفية جميع الرعاة

ونعهد بالأبقار إلى الثيران؟ فقد قال لي فيسوكوفسكي إن الثور حيوان ذكي وإذا درّبناه على الشعور بالمسؤولية يكون من الناحية الذاتية حامياً للأبقار، ومن الناحية الموضوعية راعياً عندنا! فكثرة المستخدمين على الملاك من دلائل التخلف. يا رفيقة ناديجدا، ينبغي لنا أن نستخدم أقل عدد من الناس، فالأعمال في الجمهورية كثيرة جداً... فيدراتوفنا اعتقلت الرعاة الخبثاء، ولم يعد لدينا مكان لحبسهم. كليمنت ربطهم بحبل، كيلا يهربوا، واقتادهم إلى سجن الناحية. ويقال إن زوجاتهم غازلن كليمنت في البرية، فتمكنوا من الفرار. تسلَّمنا المولّد، إلا أننا شعرنا بالضجر في غيابك...

وأضاف المهندس فيرمو أقوالاً أخرى لا رابط بينها، لكي يخلص دماغه مما ترسب فيه من ضجر واكتئاب. ولم تردّ عليه بوستالويفا. كان التعب قد نال منها بعد كل جهودها في المدينة، وأثقلت على فؤادها، المثقل أصلاً بالمشاعر المكبوتة، تلك الانطباعات التي تركتها في نفسها مشاهد العمران التاريخي، حتى أنها سرعان ما غفت في ظل الطاحونة المجهولة بعد أن استولى عليها غيظ صامت على الجميع.

استيقظت في المساء، فوجدت نفسها ملتحفة ألبسة منوعة تقيها من الندى ومن برد الليل.

جلس على مقربة منها ستة عشر شخصاً، بينهم كمال وفيرمو وفيسوكوفسكي، وكانوا جميعاً يأكلون من قصعة واحدة.

- سفلة، حقراء! - قالت بوستالويفا - دمروا السوفخوز

وجلسوا يأكلون العصيدة. من منكم أول الذين حفروا الأرض؟ كيف القطعان؟ هل هي بخير؟ أين العجوز فيدراتوفنا؟ ماذا كنت تفعل هنا يا كمال؟ لمَ لم تراقب؟ مَن هؤلاء؟ إنكم تثيرون عجبي. كالأطفال الصغار. بينما كنت أظنكم شيوعيين حقاً!

- نحن؟ - كاد كمال يغص بعصيدة اللبن على خفتها - نحن لسنا شيوعيين؟ يا لك من بنية حمقاء! أنا حداد وميكانيكي عجوز، من ثلاثين عاماً لا أعرف الابتسامة، وها هو المهندس فيرمو يأتي إلينا ويفتح أمامنا رحاب العلوم، فابتسمتُ لمنظر سوفخوزك وبيوته الطينية. إنك تشوّهين الشعارات وتسكتين على الطبيعة وعلى التخلف هنا، يا تافهة، يا عصبية! أنت غادرت واختفت عجوزك أيضاً، اختفت الدجاجة السوفيتية الأخرى، وقلنا نحن الثلاثة - أشار كمال إلى فيرمو وفيسوكوفسكي - قلنا لسوفخوزك، سوفخوز العجائز، اغرب عنا، لست أنت ما نطمح إليه. وبعد ليلة واحدة لم يعد له وجود! يجب أن نعمل، أيتها الرفيقة المديرة، ليس من أجل زيادة اللحوم بمئة طن، بل بعشرة آلاف طن. أنت لا تزالين بنتاً صغيرة في نظر التكنيك.

وفكرت بوستالويفا وهي تتطلع في وجه كمال مجدداً: «ما أروع أن يتطور الناس عندنا بمثل هذه السرعة!»

العمال الآخرون، الذين اتضح أنهم فقراء فرّوا من كولخوز أومريشيف، راحوا هم أيضاً يلومون بوستالويفا لأنها استصغرت شأن البرج والطاحونة والمخططات المنتظرة.

أخذ فيسوكوفسكي يد بوستالويفا ورافقها، كامرأة، إلى البرج. وكانت هي صامتة. شيّعها فيرمو بنظراته وفكر متسائلاً: كم من المسامير وشموع الإشعال والنحاس والمعادن يمكن الحصول عليه كيمياوياً من بدن بوستالويفا؟ ودهش في دخيلة نفسه مكتئباً: «لماذا نبني محارق الموتى؟ يجب أن نبني مصانع كيمياوية لاستحصال المعادن غير الحديدية والذهب من جثثهم، إضافة إلى مختلف مواد البناء والتجهيزات!»

البرج مبني بشكل مخروط ناقص من قوالب طينية مضغوطة في مكبس يدوي.

وفي مدخله مربط خصوصي للماشية لم يكن ملبّساً بالحديد بعد، إلا أنه كان بمثابة الكرسي الكهربائي بالنسبة للإنسان، بمعنى أنه يمثل مجزرة لنحر المواشي بالتيار العالي. فما كان فيسوكوفسكي وفيرمو يريدان إفساد طعم اللحوم بآلام سكرة الموت وجنون الدابة، في النزع الأخير، بفعل الأدوات الميكانيكية. بالعكس تتمتع الدابة في المجزرة الكهربائية بملاطفة تمهيدية، ويحل الموت في لحظة تناول أفضل وجبة من العلف بتلذذ وارتياح. باطن البرج ملبَّس بألواح الخشب المتلاصقة والمطلية بطبقة صمغية من اللك العازل للكهرباء.

وسألها فيسوكوفسكي:

- أتعرفين ما هذا؟

- كلا، أنا لا أفهم في هذا شيئاً - أجابت بوستالويفا - الأمطار ستجرف برجكم الطيني هذا.

- سمك قوالب الجدار الطيني لا تقوى عليه الأمطار الغزيرة حتى لو استمرت عشر سنوات. . .

كان بدن فيسوكوفسكي يقشعر ويرتجف نفسانياً واقتصادياً عندما يرى منظر المواشي وهي تقاد إلى المدن لأجل الذبح سيراً أو في عربات القطار عبر الأماكن الخالية. الأبقار، والثيران بخاصة، سريعة التأثر والانفعال، وليس سهلاً عليها أن تتحمل النقل بالسكك الحديد، ورؤية مناظر المدن وزئير التصنيع. أعصابها تتخلخل، ويصيبها الهزال والإسهال، فتقذف الفضلات بلا انقطاع. وتفيد الحسابات أن الأبقار تفقد عشرة بالمئة أو أكثر من وزنها إذا نقلت بالقطار قرابة ألف كيلومتر. فيما تفقد الثيران أكثر، وكأن أبدانها تذوب متألمة لأنها لن تؤدي وظيفة الإنسال بعد الآن.

ولو افترضنا أن سوفخوز «أحواش الوالدين» يرسل خلال العام الواحد أبقاراً بما يعادل ألفي طن من اللحوم فإنه يهدر، بسبب هزال الماشية في الطريق، مئتي طن، وربما أربعمئة طن، من أجود اللحوم الطازجة. وإلى ذلك يمكن أن تنفق الأبقار أصلاً في الطريق. ويراد للصومعة الكهربائية المبنية على غرار البرج أن توفر المئتي أو الأربعمئة طن من اللحوم هذه. ويجري تقطيع البقرة حسب أصناف جودة اللحوم، ويتم تكديس القطع في الصومعة ويمرر من خلال أكداسها قدر من التيار العالي، يجعل اللحوم طازجة ومغذية وقابلة للحفظ، دون أن تفسد، فترة قد تطول عاماً كاملاً. فالكهرباء تقتل ما فيها من جراثيم فتاكة.

وعند الحاجة تُعلَّب تلك اللحوم في براميل خشبية مفرغة من الهواء وتُرسَل إلى المدن. وينتظر فيما بعد تشييد مجمع حول الصومعة الكهربائية لإعداد اللحم المفروم والسجق والمعلبات وإرسالها جاهزة إلى المستهلكين.

تحسّرت بوستالويفا بعد الحديث مع فيسوكوفسكي وشعرت بضيق في الصدر، لأنها ليست مهندسة لحد الآن، ولأنها ستوغل أكثر في غرام المهندس فيرمو.

عرض فيسوكوفسكي على المديرة عدداً من التدابير الأخرى التي تعمَّق في تفاصيلها مع فيرمو وكمال، وهدفها تجميع كميات كبيرة جداً من لحوم السوفخوز. فيما كانت بوستالويفا تفكر صامتة بالبلشفية التقنية الجديدة التي لم يعد عقلها، هي، يتسع لاستيعابها.

في تلك اللحظات ولجت مدخل الطاحونة طباخة السوفخوز السابقة متحيرة في شأن مصيرها الغامض بعد أن دمرت كل المباني، وحوّل الفلاحون الملاعق المعدنية إلى أسلاك وعملوا من قدور الحساء صفائح مستوية، بل وانتزعوا من المرأة حتى أقراطها القصديرية وصهروها. وأبلغت هذه المرأة الحزينة التي لم يعد لها شأن، بعد أن حرمت من أدوات الطبخ، أن قطيعاً جديداً يتحرك قادماً من جهة بعيدة، فاذهبوا لاستقباله وسارعوا في استدعاء النسوة من البراري، فما من أحد يحلب هذه الماشية التي بدأ اللبن يشخب من ضروعها على الأرض.

خرجت بوستالويفا وفيسوكوفسكي من الطاحونة فوقع بصرهما على سائس ثور المروحية في كولخوز أومريشيف. كان قد أسرع قبل الجميع ليرى بأم العين الموقع الجديد لحياته ويتواصل معه.

* * *

عادت بوستالويفا إلى السوفخوز ليلاً، بعد أن فرغت من تدبير شأن القطيع الجديد على بقعة معشوشبة كان قد اكتشفها فيسوكوفسكي مؤخراً قرب أحد الآبار البعيدة المهجورة في السهب وتأكد من أن الكلأ فيها غني متنوع الأصناف. وكان فيرمو في تلك الساعة يعزف على الهارمونيكا، فيما راح كمال يرقص وكأنما يريد أن يلفظ أنفاسه الشائخة الضجرة ويتنشق بدلاً عنها هواءً آخر من هبّات الرياح.

كان المشهد غريباً ولا يخلو من الخطر. موقد مشتعل جنب البرج في ظلام السهوب، وأشخاص يلهون مرحين تحت زعانف الطاحونة الجبارة، وأصوات بشرية مختلطة، وأنغام موسيقية رائعة تتجاوب دوماً مع نوايا البلاشفة المتصارعين. دخلت بوستالويفا حلقة الرقص وأخذت ترقص على التوالي مع كل واحد من المشاركين، إلى أن جرّبتهم جميعاً. ولم يتمكن فيرمو، بسبب انشغاله في العزف، من الرقص معها. إلا أنها وعدته، وهي ترقص مع غيره، أنها ستستحصل له آلة حفر للوصول إلى بحر الصِّبا، فتحمّس فرحاً وراح يعزف على

الهارمونيكا بأفضل مما كان. فيما ظل سائس ثور المروحية منزوياً جانباً دون أن يلتحق بركب الصداقة والموسيقى. غير أن بوستالويفا أشركته هو أيضاً في جولتها الراقصة، فانطبعت على وجهه ابتسامة عريضة تفصح عن موافقته سلفاً على بذل قصارى الجهود في بناء السوفخوز، فهو لم يكن قد رأى في حياته الكثير من الرقة والنعومة. كان يشم رائحة مراقصته، مديرة السوفخوز، ويشعر بالارتياح لكرامته وأهميته وتكافؤه في الصداقة مع كبار المسؤولين. فيما سلطت عليه بوستالويفا نظرات عن كثب من عينيها الهادئتين الصادقتين وابتسمت له ابتسامتها الجدية الخالصة، وهو يتحسس يدها الخفيفة مستقرة على كتفه التي اعتادت الأحمال وصبرت على الأثقال.

كان فيرمو يتابع الراقصين ويفكر في الوقت ذاته بكيفية عقلنة الراحة والسعادة. لكنه لم يفلح في السيطرة على غلالة الكآبة التي اكتنفت فؤاده وهو يرى إلى بوستالويفا تعانق طبقة كاملة من البروليتاريا دون أن تشعر بالتعب، فراوده أمل بأنها يمكن أن ترد عليه هو أيضاً بشعور صادق فوّار.

وبعد قليل جأر السائس من الفرح بصوت نسائي أبح. وراح الراقصون ينهون رقصتهم بالتدريج، لأن المرح أخذ يتحول إلى ضده بعد أن استطال.

حل منتصف الليل: الهواء بات بارداً بفعل الندى والحنين إلى أشعة الشمس. وعندما ألمّ النعاس بالجميع، ورغب كل أفراد الفريق الفني بإشراف فيرمو وكمال، في النوم والدفء

المنشود، لم يجدوا ما يلتحفون به. الألبسة الدافئة أعطيت للرعاة المعيّنين حديثاً فأخذوها معهم إلى المراعي. ولم يبق سوى قطعة كبيرة جداً من اللباد طولها عشرة أو خمسة عشر متراً، فاندسّوا جميعاً تحتها، وأفردوا لبوستالويفا مكاناً أدفأ في الوسط، وأفسح لها أقرب النائمين مسافة توفر لها حرّية التنفس والحركة، فيما لو أرادت أن تتحرك في المنام.

في صباح اليوم التالي عاد حنطور فيدراتوفنا إلى السوفخوز، ووصل معها أوبريدلونوف، سكرتير لجنة الناحية، بصفة حوذي. جأرت العجوز بصياح الغضب من بعيد، ظانة أن أزلام أومريشيف تمكنوا من نهب السوفخوز وتدميره في غيابها.

- لا تستعجلي في الصياح يا مسكينة. - أوقفها السكرتير، فهو لا يطيق الزعيق على الأرض مهما كان مصدره، ويعتبره دليلاً على العجز. - هدوءاً، يا جدتي. نحن لا نهاب الموت.

ثم وقع بصره على النيام تحت اللباد، فسحبه من فوقهم، فاستيقظوا مرتاعين.

أفاق فيرمو تماماً، ولمح الاستياء على وجه العجوز والسكرتير، فأخذ يسلط اللوم على تلقائية بناء الطبيعة في هذه البقاع وعلى تغاضي الإدارة عن هذا البناء الانتهازي، على حد تعبيره. فهي التي ألقت الحبل على الغارب. ألا يجسد الشكل الطيني الخشبي لبناء السوفخوز مظهراً لكراهية التكنيك؟ وهل يمكن الحصول على لحوم من ماشية جائعة عطشى، تجوب في اكتئاب عشرات الكيلومترات في اليوم بحثاً عن الكلأ ؟ ولذا

جرفنا في ليلة واحدة كل حثالات السوفخوز وحاجياته البائسة، حتى نفكك الأثاث والأدوات وننتزع منها المسامير والأخشاب والمواد النافعة الأخرى اللازمة لصنع الآليات الحقيقية وتنظيم منتجات السوفخوز!

- معه حق - قال كمال بشيء من الاكتئاب.

- لا تزالون بعيدين عن فهم التكنولوجيا البلشفية. - واصل فيرمو في صبيحة ذلك اليوم الصيفي، ولم يكن قد اغتسل بعد، فلاحت عليه أمارات الهرم بفعل تزاحم الأفكار في دماغه. - نحن نفتقر إلى الشعور العضوي بالتقنيات كحاسة أولى من حواس الإنسان...

أدركت فيدراتوفنا أن أحداً يضمر سوءاً للعلوم، فالتزمت في الحال موقف الدفاع المستميت عن فيرمو، وألقت كلمة أشادت فيها بالبرج والصومعة والطاحونة.

ضحك السكرتير ساخراً من العجوز، وكان مسروراً لأن ما يجري على خلفية الإعجاب الشعوري في «أحواش الوالدين» إنما هو في الواقع تربية الماشية الاشتراكية التي فاقت كل ما هو موجود من نوعها في الدنيا. فقال:

- الكلمة لك الآن يا فيسوكوفسكي.

همّ فيسوكوفسكي بالكلام وفي نيته أن يعبّر، من خلال إعلان التوبة، عن الفرحة التي اكتنفته بصفته مهندساً مبدعاً في تربية الدواجن، فقال: - مع أنني اختصاصيّ في تربية الدواجن، ومع أن هذا الاختصاص كان ملوثاً بانتهازية الجهلة وتخريبات

الأميين وبالنظرة إلى علم الحيوان على أنه علم هادئ رقيق، كل شيء فيه يتطور بتناسق حثيث، إلا أنني أعلن هنا أن تربية الدواجن والماشية السوفيتية مستحيلة بدون التعدين وصناعة المكائن والكهربة، ذلك لأن الحديد والنار هما اللذان سيوفران لنا الماء في البراري والسهوب الجافة، ولأن نبض الكهرباء الرهيف الذي يقترب من حيث رقّته وحدّة مادته من مادة الحياة وظواهرها، من علم الحيوان، وهذا النبض وحده، أو ما يسمّيه رفيقنا الموقر نيكولاي فيرمو تلاعب أشعة الشمس في أعماق ذرات المادة، هو الذي سيعطينا فائض اللحوم النامية على عظام الماشية ويمكننا من نحر الأبقار بحكمة ورشاد وحفظ لحومها دون تلف أو نقصان ونقلها إلى حيث نريد. ثم إنني أقترح التخلص من هروب الأيدي العاملة على الفور...

- كيف، تحديداً؟ - سأل السكرتير وهو ينصت بملء فؤاده إلى كلام الاختصاصيّ.

- يجب تصفية هذه الظاهرة كما هي عليه، بوصفها من مخلفات القطيعة بين المدينة والريف... ينبغي اعتماد درجات متحركة للمهن، بحيث يكون بالإمكان تعليم الراعي أعمال البناء حتى يمارس النجارة أو غيرها في الشتاء، فيحتضن الشخص الواحد بمهاراته المتنوعة عدة مهن يستخدمها الواحدة تلو الأخرى حسب فصول السنة... بوسع كل شغيل كادح، ويجب عليه أن يتضلع في مهنتين على أقل تقدير. رفيقنا كمال يمتلك ناصية أربع مهن دفعة واحدة، ما يوفر عشرات الآلاف

من الروبلات في «أحواش الوالدين» وحده. . . فلتعشْ حياتنا وعملنا المتوتر من أجل كل الرفاق. . . البعيدين والقريبين! . .

- اختتم فيسوكوفسكي المتواضع كلمته بهذا الهتاف الحماسي على غير المتوقع، وعلت وجهه ببطء حمرة الخجل بسبب هتافه الختامي البطولي الذي لا موجب له.

- فليعش اختصاصيّونا الاشتراكيون! - قال السكرتير أوبريدلونوف بصوت مسموع ليمحو صبغة الخجل الزائف من على وجه فيسوكوفسكي.

إلا أن وجه الأخير ازداد حمرة. فقهقه الجميع، وظلت بوستالويفا تضحك إلى أن نبعت الدموع في عينيها برّاقة في ضوء الشمس، كالندى، على أعشاب الرموش السوداء. ولاحظ الجميع ما حصل لعينيها، فيما قال فيرمو:

- أتعهد لكم بأن نبلغ أوج ازدهار عصرنا قبل أن يدرك الموت بعضنا. ولن نحتاج آنذاك سوى أن نصنع المحوّل البصري الذي يلتقط الضوء ويحوّله إلى تيار كهربائي، مثلما نصنع جهاز الراديو الآن. ومن خلال ذلك المحول تأتينا طاقة كهربائية لا تنقطع من فضاء الشمس وضوء القمر ووميض النجوم ومن عيني الإنسان. . . هذه المشكلة يا رفاق، تومض في نظرة بوستالويفا وحدها. أما أنتم فتنظرون إليها بعيون الخسة الجنسية والدناءة. وهذا غير صحيح طبعاً.

- انظر في عينيّ - طلبت منه فيدراتوفنا - هل تومض فيهما الكهرباء أم انطفأت؟

حدّق فيرمو في عيني العجوز وقال:

- وميض خافت في عينيك. تحجبه غشاوتان بيضاوان متسعتان.

اعتبرت فيدراتوفنا هذا القول في الحال مؤشراً على هجوم مبيت من قبل العدو الطبقي، إلا أنها عدلت عن هذا الرأي بعد أن حركت فكيها الخاليين. فوافقت قائلة:

- لا يهم. سأظل أرى، بالحدس، حتى لو فقدت بصري. يا لك من عالم متطرف!

- لا تستعجلي في الأحكام يا جدتي - قال سكرتير الخلية - لديهم أفعال، وليس لديك سوى الأقوال... يا رفاق، فلنبدأ بوضع خطة إعمار «أحواش الوالدين».

وفي الحال وضعوا قائمة التدابير الرئيسية جلوساً على قطعة اللباد المشتركة، وتضمّنت القائمة تسع فقرات:

1. إنجاز بناء المحرك الكهربائي ونصب المولد وآلة التوصيل وإنشاء الشبكة الكهربائية. والهدف من هذا المشروع تدفئة زرائب الماشية ومساكن العمال في الشتاء، وتشغيل المضخة ومكبس قوالب الفضلات في الصيف. وعُيّن فيرمو مسؤولاً عن الأعمال وأُمهل شهرين لإنجازها، على أن تتوفر بالنتيجة 300 طن إضافي من اللحوم وما مقداره 100 روبل من الوقود، ويتم تزويد مركز السوفخوز بالمياه.

2. تزويد الصومعة والمجزرة بالكهرباء والمعدات لتجهيز

لحوم البقر الطازجة للاستعمال الطويل الأمد، بمشورة فيسوكوفسكي ومسؤولية فيرمو. على أن ينجز العمل في غضون شهر، ويوفر ما لا يقل عن 400 طن من اللحوم. وفي حال سكون الريح تزود الصومعة بالكهرباء عن طريق دوارة الثور، فالصومعة لا تستهلك كميات كبيرة من الكهرباء.

3. نصب مكبس قوالب الفضلات من براز الماشية لحل مشكلة الوقود في البراري. ويتولى كمال مسؤولية هذا العمل الذي يوفر 2000 روبل تعوض عن قيمة الوقود الإضافي.

4. شراء وحدتين فولطيتين بقدرات مختلفة، وتحويرهما بحيث يستخدم اللهب الكهربائي من الوحدة الأصغر لتقطيع الصخور الضخمة في المقالع ولحامها من جديد في مواقع البناء، وتستخدم الوحدة الأقوى في حرق طبقات الأرض واختراقها وصولاً إلى الأعماق البلورية لبحر الصِّبا العذري. ويصار في الوقت ذاته فوراً إلى حفر آبار غير عميقة في جميع مراعي السوفخوز (الشبكة الصغرى لإسالة المياه). وتشرف بوستالويفا وفيرمو على أعمال التحوير حتى يتم إنجازها في ثلاثة شهور، وتكون المنافع في مواقع البناء 50 ألف روبل سنوياً، وفي الشبكة الصغرى لإسالة المياه 40 ألف روبل، وفي الشبكة الكبرى (الوصول إلى بحر الصِّبا) تبقى المجازفة الاشتراكية قائمة.

5. اختراع وصنع جهاز بصري لتحويل أشعة الشمس إلى كهرباء، للحصول على الطاقة في البراري والسهوب وفي العالم

كله من أية بقعة منارة إلى ما لا نهاية. يشرف على المشروع فيرمو وكمال وبوستالويفا. والهدف الأول من ذلك هو إحلال البلشفية التكنيكية في «أحواش الوالدين» وفي جميع أرجاء الأرض المكشوفة.

6. تصميم ماكنة نقالة على أساس شاسي السيارات لحلب القطعان النائية وتوصيل القشدة إلى مخّاضة السوفخوز بسرعة. يتولى مسؤوليتها فيسوكوفسكي وكمال ويتعهدان بصنعها في غضون شهرين، حتى تبدأ بتوفير 18 ألف روبل في العام.

أما الفقرات السابعة والثامنة والتاسعة من الخطة فقد تضمّنت باقي أنواع الأعمال. على أن يتلقى كل مشروع من مشاريع الخطة دعماً ومشورة من معهد المحروقات المجهولة والجمعية الاقتصادية الحرة ومعهد الطاقة الرخيصة والجمعية العلمية لمعونة البناء الاشتراكي وجمعية الحفر العميق وغيرها من المؤسسات المعنية.

* * *

بعد شهر أو شهر ونصف وصلت إلى «أحواش الوالدين» التجهيزات والمواد التي حصلت عليها بوستالويفا في مركز الإقليم. وكان يمكن أن لا تصل. بيد أن بوستالويفا عثرت بنفسها على تلك التجهيزات التائهة في السكك الحديد وأوصلت العربات المحملة بها إلى أقرب محطة من السوفخوز. نعم، كان يمكن أن تعتبر تلك الشحنات يتيمة

مجهولة العائدية، فيستحوذ عليها في الحال وكلاء مشاريع البناء الكثيرون الذين كانوا يلازمون آنذاك جميع المراكز الرئيسية في شبكات النقل. كان وكلاء التموين هؤلاء ينظرون دوماً بعيون الذئاب إلى شحنات الغير، ويعتبرون مشاريعهم الإنشائية وحدها هي الحاسمة في بناء الاشتراكية. ولذا كانوا يدهشون لأن جهة ما تموّن أحداً غيرهم، فيسعون إلى تحويل الشحنات التائهة إلى شحنات عديمة العائدية ليغيروا عناوينها في صالحهم مستفيدين من الهرج والمرج في ساحات البناء الواسع النطاق.

في ذلك الوقت على وجه التقريب وصل إلى السوفخوز مهندسان من مركز الإقليم، هما الكهربائي غوفت والهيدروجيولوجي دايف. الأول من منتسبي معهد المحروقات المجهولة، والثاني من جمعية الحفر العميق. وقد عملا بالاشتراك مع المهندس فيرمو على تجسيد الأفكار التصميمية للحفر الكهربائي حتى اتخذت شكلها التفصيلي على ورق الرسم، وصححا مختلف الهفوات في بناء البرج ومكبس السرقين ومحرك الطاحونة الهوائية.

لم يرغب المهندس غوفت في مغادرة السوفخوز، فبقي هناك حتى نهاية جميع الأعمال، فيما توجّه دايف وبوستالويفا على عجل إلى مركز الإقليم وإلى لينينغراد بحثاً عن أجهزة اللحام الكهربائي. وكان لا بدّ من جلب تلك الأجهزة لتحويلها وتكييفها فوراً لأعمال أخرى. أحدها كان ينبغي أن يُستخدم

بسرعة لتقطيع الصخور في المقلع ثم لحم أجزائها في بناء المساكن قبل حلول الشتاء.

مكتب إعمار السوفخوز يقع في مدخل صومعة العلف السيلاوي. الجميع هناك يرسمون التصاميم ويعدّون الحسابات وينامون الليل ويغرقون في هذيان الأحلام. اهتم كمال بنواقص المعيشة ومضى إلى فيدراتوفنا في كولخوز أومريشيف. وبعد أربعة أيام جلب من الكولخوز على الثيران المخصية ستة أكواخ خالية من عائدية الأثرياء الذين كانوا يختبئون في الآبار هرباً من العجوز فيدراتوفنا. ولم تتضرر هذه الأكواخ بسبب نقلها إلا قليلاً، فكانت صالحة تماماً لإقامة الفنيين ومبيت العمال.

فتح المهندس فيرمو جبهة العمل رأساً في جميع اتجاهات المقاومة. وركز الضربة الرئيسية على إكمال بناء المسلخ الكهربائي وتجهيزه. وقام شخصياً بنصب جميع التجهيزات.

إلا أن عدد العمال ستة عشر فقط، وكانوا متعبين لدرجة عجزوا فيها عن غسل العرق المتصبب منهم بالماء، فكانوا يشعرون برغبة شديدة في النوم لينسوا التعب والإرهاق.

ذات مرة، في الليل، كان فيرمو جالساً عند المكتب يشدّه الحنين إلى بوستالويفا. فأخذ يتصفّح دفاترها وكتبها. كان الآخرون نائمين على الأرض من حوله. وتفوح منهم رائحة الحياة بعد عمل النهار. قمصانهم تهرأت وبليت على أبدانهم المتسخنة دوماً، وأفواههم فاغرة حزينة تترطب بهواء الليل ليطهر تلك الأبدان الملوثة بتراكمات الخور والعجز الفتاكة.

استلقى كمال متمدداً على ظهره ووجه كوجوه الموتى. فقد نقل لوحده جذوع الأشجار إلى أعلى الصومعة هذا النهار، وبالأمس غرز أوتاد التثبيت لإسناد المحرك الهوائي في مواجهة أعاصير الشتاء.

كان يتنفس، وأضلاعه المعروقة، بسبب العمل والإجهاد، ترتفع وتنخفض برفق وهدوء. إلا أن وجهه الذي تكسوه سحنة التعب والاكتئاب ظل محتفظاً بشيء ضبابي من رقة الأمل والاستهانة بمتاعب الحياة. ومن هذه الناحية كان كمال يشبه بوستالويفا لدرجة ما، وعلى نحو ربما غير ملحوظ.

«لماذا ينقل الجذوع بنفسه؟ كان عليه أن يعلق بكرة ويرغم الثور على رفع الجذوع من خلالها بجر الحبل» - فكر فيرمو في سكينة الفضاء الفسيح - «وما حاجتنا إلى العمل عموماً إذا كان مجرد تكرار لجهود رتيبة؟ ينبغي أن نستبدله بالمخترعات الإبداعية المتواصلة».

السائس كان منبطحاً على بطنه، بعد أن فرغ من حفر التربة لإقامة مختلف الأجهزة والمعدات هناك. فقرر فيرمو أن يصنع غداً عدة رفوش لحفر التربة بقوة الثيران، بل وربما بتكييف قوة الرياح.

فيرمو لا يعلم ما إذا كانت لدى كمال والسائس حياة أخرى غير هذه، وما إذا كانا يمتلكان ذوقاً جمالياً أو مدخرات في بنك التوفير. فهما، أغلب الظن، لا أصل لهما ولا مسقط رأس، فقررا أن يستوطنا المستقبل ويتخذا منه وطناً لهما.

عثر فيرمو بين حاجيات بوستالويفا على «قضايا اللينينية»، فأخذ يقرأ هذا الكتاب الشفاف الذي بدا قاع الحقيقة من خلاله قريباً، بينما هو في الواقع عميق، ذلك لأن أسلوبه قائم كلياً على شعور قوي بالمنفعة والجدوى من دون أية مخاليط للتزويقات المضحكة، وكان الكتاب واضحاً إلى أبعد الحدود، وضوح الفضاء الوضاء، والبسيط في امتداداته إلى ما لا نهاية في الزمان والمكان.

شعر فيرمو بالهدوء والطمأنينة وهو يطالع الكتاب. وابتهج لقناعته بصواب مجرى حياته، وكأن رفيقاً جدياً أقدم، لا يعرفه شخصياً، قد انتخى يشد عضده. وحتى لو قضى المهندس فيرمو نحبه في الكدح والإجهاد فإن الأيادي الصديقة سترفع جثمانه إلى ذروة النجاح، فيما يفلح رفاقه الذين على قيد الحياة في انتزاع بحر الصِّبا من أعماق الأرض، ويحوّلون شعاع الشمس إلى كهرباء.

مع طلوع الفجر ترك فيرمو مكانه إلى الخلاء. الكرة الأرضية دارت دورتها ودفعت بهذه البقعة لاستقبال الشمس، فاستجاب قرصها بإطلالته المعهودة. إلا أن فيرمو لم يمعن التفكير بهذه الظاهرة، خلافاً لعادته في التفكير بما هبّ ودبّ. لقد أطال القراءة في الليل وبات يشعر الآن بأنه لم يكن ذكياً بالقدر الكافي. مضى إلى السهب منزوياً، فانبطح هناك على بطنه وملامح وجهه تفصح عن ضآلة شأنه.

جاءه فيسوكوفسكي من أحد الأمكنة، وأبلغه بأنه استدعى

من المراعي اثني عشر راعياً ليساعدوا الفرق الفنية، وترك الأبقار في عهدة الثيران الأكثر وعياً. وكان حتى ذلك الحين قد أجرى تجارب على الحماية التلقائية والاكتفاء الذاتي للقطعان، فروّض بعض الثيران على الانتساب إلى قطعان بذاتها من الأبقار، تمهيداً لتنشئة كل ثور بصفة رب الأسرة وأبيها. فماذا كانت النتيجة؟ الثيران تتناطح فيما بينها وكل منها يسعى إلى تأمين المرعى الأوفر عشباً والأغزر ماءً لأبقاره، فيما ترعى الأبقار بوئام ويزداد وزنها. وفي حال الانتقال لأبوة الثيران يمكن تقليص عدد العاملين في السهوب إلى النصف.

تطلّع فيرمو في وجه فيسوكوفسكي دون أن يسمع ما يقول.

ثم عاد إلى المنزل، وكان العمال فيه لا يزالون نياماً، إلا أن وجوههم المضاءة بنور الفجر بدت أكثر مهابة وأكبر شأناً. وفهم فيرمو، على قدر المستطاع، أقطاب الثورة. فإن فكرتهم تتلخص في التعويل البلشفي على ابن الشارع الذي يتحلى بأكبر قدر من البطولة مدفوعاً بمصائب التاريخ، وعلى الإنسان الذي خنق البرجوازية المسلحة وأبادها بيده الهزيلة في عام 1917 ويبدع الآن في بناء الاشتراكية، في بلد شحيح الموارد، ويستقي مادة البناء الأولى من بدنه وكيانه.

هذه الفكرة ذائبة بصمت في الكتب التي طالعها فيرمو ليلاً. ولن يسمعها القلب الصغير القابع بين أضلاع المالك الفردي أو البرجوازي.

في ذلك اليوم شكّل فيرمو فريقاً من سبعة أشخاص انضم

إليهم بنفسه. كان يريد تحقيق الأمل المعلق على إبداع الإنسان البروليتاري المعدم ليتحول ذلك الإبداع إلى وسيلة للعمل، وكيلا يحمل كمال الجذوع والأخشاب، بل تنوب عنه الريح أو الثيران والبغال، وكي تسير الأعمال بحكمة ومغزى وليس بالتحمل والصبر على الإجهاد كما يعمل العامة من الرأسماليين.

في نهاية الأيام العشرة الأولى لم يستخدم الفريق العمل الفظ تقريباً. فقد حل محله العمل بجذوع الأشجار والحبال والأدوات الحديدية المكيفة للتحرك بقوة الثيران المخصية.

* * *

بعد شهرين، وقد حل الخريف، وصلت من لينينغراد وحدات اللحام الكهربائي وباقي المكائن والمعدات المعدلة. ووصلت بوستالويفا والمهندس دايف في نفس وقت وصول المكائن الكثيرة.

جاءت بوستالويفا من السكة الحديد عبر الكولخوز واصطحبت أومريشيف الذي كان قد أعلن خضوعه في حينه. فيدراتوفنا أوفدته إلى السوفخوز للتأكد من ولائه على محك العمل.

أومريشيف فُصل من الحزب من زمان، وتعرَّض للمحاكمة، ونشر في جريدة الناحية براءة من أفكاره الغريبة. صار يمشي الهوينى على الأرض ولا يعرف لنفسه موطئ قدم. عاش أياماً

طويلة في كنف فيدراتوفنا بصفة مدبر شؤونها المنزلية، وهو أمر فرحت له بوستالويفا لأسباب غيرِ واضحة. فكانت تقهقه طول الطريق برفقة أومريشيف في العربة المكشوفة، فيما كان هو يحاول أن يتزحزح عنها كيلا يلاصقها على مقعد العربة الضيق.

وقد أمضت بوستالويفا بضعة أيام في موسكو، زارت خلالها مؤسسة تربية المواشي وجاءت من هناك بنبأ يهمّ جميع العمال عن افتتاح مجمع تجريبي وتعليمي نموذجي للحوم والألبان في «أحواش الوالدين». وكانت اللجنة الحزبية في الإقليم قد طرحت هذه المسألة، وتم تنسيقها والموافقة عليها في جميع الهيئات المعنية.

وبعد فترة وجيزة وصل إلى «أحواش الوالدين» عدد كبير من المسؤولين من موسكو ومركز الإقليم. ومهمتهم تنظيم المجمع التعليمي وحضور أول حفر لباطن الأرض في العالم باستخدام تيار كهربائي يحرق طبقات التربة وصولاً إلى مياه الأعماق.

حالما تسلَّم المهندس فيرمو وحدة الفولطية الكهربائية أخذها إلى السهب، بطريق لا علم لأحد به، واصطحب كمال وحده.

بعد أربعة أيام عاد فيرمو ونصب الوحدة الكهربائية وسط باحة السوفخوز التي قيد البناء، وشغّل المحرك ووجّه اللهب الكروي المتألق بزاوية قائمة نحو باطن الأرض.

جلس أعضاء وفد موسكو والإقليم على المصاطب حول

الوحدة الكهربائية الهادرة. وارتفع عمود من الغاز الخانق فوق التربة الذائبة والمتحولة إلى حمم. ثم، بمضي نصف ساعة، دوى انفجار وانطلق بخار هائج بعد أن ولج اللهيب في الماء وحوَّله إلى حالة التبخر. وأطفأ فيرمو الجهاز.

كل الذين شهدوا ما حدث أكدوا أن البئر ليست عميقة، قرابة ثلاثة أمتار. ذلك لأن السوفخوز واقع في منخفض. وأن طبقة صخرية متكلسة بعد الذوبان تغطي السطح الداخلي للبئر، ما جعلها أكثر حصانة أمام الانهيار، وأن الماء يتلألأ في أعماقها. ثم عمد فيرمو وكمال إلى تغيير اللهيب الكروي ليكتسب شكل الشفرة الحادة، وأخذا يقصّان بها صخوراً طبيعية مهيأة لهذا الغرض مسبقاً، ثم يحملان أجزاء تلك الصخور بشكل ألواح يرصفان منها جداراً مصمكاً في إشارة إلى ضرورة البدء ببناء المساكن للناس والزرائب للماشية.

* * *

قبل أن ينتهي الخريف توجهت سفينة من لينينغراد صوب هامبورغ. وكان على متنها المهندس نيكولاي فيرمو وناديجدا بوستالويفا، موفدَين إلى أميركا لمدة سنة ونصف ليجرّبا هناك فكرة الحفر العميق باستخدام اللهب الكهربائي ويدرسا كيفية استحصال الكهرباء من الفضاء الذي تنيره السماء.

على الرصيف شخصان قصيرا القامة كانا في وداع المسافرَين. العجوز فيدراتوفنا جاءت من بعيد لتذرف دمعة على

بوستالويفا في وداع أخير، لأنها لم تكن تأمل في العيش سنة وستة شهور أخرى. ذلك لأن قلبها تعب، بعد أن ظل يدق طول عمرها بهمّة ونشاط.

فيدراتوفنا ترتدي قبعة خفيفة، تستقر على رأسها كورقة الحسك. وكان الشخص الثاني، أومريشيف، يمسك بيدها ويمسح عينية بمنديل أبيض في مشاطرة واضحة. كان أومريشيف، منذ أن عمل في الكولخوز، قد أحب فيدراتوفنا على حيويتها وصراحتها وحماستها، وعلى رسوخ عقيدتها التي لا تعرف التسامح. ومن جهتها أولعت العجوز تدريجياً، رغم خصالها النسوية الإيجابية، بهذا الشيخ السلبي الصبور، ما جعلها تتزوجه بعد حين من الزمن.

أبحرت السفينة تمخر عباب مياه الأرض. فابتعد فيرمو وبوستالويفا عن حاجز المتن، فيما ظل العجوزان على الرصيف البعيد يتطلعان إلى الأفق طويلاً والدموع تسيل. ثم راحا يواسيان أحدهما الآخر ليخففا على النفس.

في مساء ذلك اليوم كان أومريشيف يداري النوم طويلاً في غرفة الفندق ويتأوه متململاً، وفي نيته أن يعرب عن رأي يخشى الإفصاح عنه.

وأخيراً تخطى تردده وتجاوز خوفه فقال مخاطباً فيدراتوفنا:

- عزيزتي...

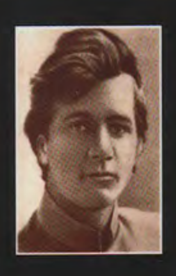
- ماذا يا شيخ؟ - سألته فيدراتوفنا بارتياح.

- يا عزيزتي، عندما يستخلص فيرمو وبوستالويفا الكهرباء من ضوء النهار ألن يخيّم الظلام على الأرض؟ فالضوء كله سيختفي داخل الأسلاك، والأسلاك، كما تعلمين يا عزيزتي، من حديد. فهي مظلمة. . .

عدّلت فيدراتوفنا المستلقية على السرير من وضعيتها، والتفتت إلى أومريشيف، وانهالت عليه باللوم لانتهازيته.

عام 1934





قالوا عن أندريه بلاتونوف:

* «الحلم في رواياته يتحول إلى سم زعاف»

ليونيد ليونوف

* «بلاتونوف يكتب بلغة لم يتكلم بها من زمان أدبنا المتعب المعلوك المتزمت»

الكسندر بلوك

* «ما سبب توقف الحملة الصحافية ضدك يا أندريه؟ ألأنهم يعتبرونك في طور النقاهة الفكرية؟!»

فاسيلي غروسمان

